مُحَمّد عَليّ

رواية

لم يُحبنا العالم

3
الطبعة

تشكيل للنشر والتوزيع

لم يحبنا العالم

رواية

محمد علي



Email publish@tashkeel- publishing.com
Website www.tashkeel-publishing.com
Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6555-93-9

رقــم الإيـــداع: 2808/ 2019

تصميم الغـلاف: أسامة عز الدين

المراجعة اللغوية: أحمد المنزلاوي

الإخراج الفنـــي: ضياء فريد

المـديـــر العــام: سيد شعبان



قبل أن تبدأ

الفكرة جريئة والكاتب كذلك، لذا إن كنت غيرَ مستعد أو ليست لديك الشجاعة لمواجهة ما تخاف قراءته أو سماعه فيمكنك أن تعيدها مجددًا إلى مكانها ضمن قائمة الأكثر مبيعًا.



إهداء

إلى الفتاة التي رأتني في المترو وطلبتْ مني أن نلتقط صورة سوياً فرفضتُ دون إبداء سببٍ واضح، ستقرأين السبب بين سطور هذه الرواية.

إلى الرواية وأبطالها

أشكركم جميعًا.. ولكن كما تعلمون

لستم الأبطال وحدكم.

في هذه الرواية.. بطلها الحقيقيّ لن يظهر ولن يخطف

الأضواء.. ولكنه سيكتفي بالتصفيق مع الجماهير.



الحزن سيدوم للأبد، الحياة لم تَعُد تحتمل، ليس هذا ما حاربت لأجله ولا هذه الحياة التي طالما تمنيتها، معاركٌ طويلة وحروبٍ لا تنتهي كنتُ أنا طرفيها وخاسرها الوحيد، ولكن لا يَهُم، أنًا أستسلم الآن، هذا الحزن الذي يلاحقني آن الأوان أن ننهي السباق ونعلن فوزه، آن الأوان أن أطلق سراح روحي لتصعد إلى السماء دون خوف، لطالما كان الخوف هو الشيء الثابت في كل المعادلات التي فشلتُ في حلها؛ معادلة الوعود، معادلة الفراق، معادلة اليقين وهذه الأخيرة هي الأصعب بينهم، تمنيتُ دائمًا أن أضح حدًا لتلك الكآبة التي تعتري قلبي وروحي وذلك البؤس الذي استعمر تفكيري ومخيلتي ولكني لم أستطع، كل ما أحببته تفلت من يدي كأن أصابعي لا تقوى على رؤيتي سعيدًا،

ربما تُلهيني السعادة عن الكتابة فأنا لا أكتب إلا حينما يعتصرني الألم، ذلك الألم الذي أتقن في صناعتي كحلوى لا تُسمن ولا تُغني من وجع، أجلس الآن متكئًا على أحزاني أنتظر عِناق الموت وأُنهي خلافنا وصراعنا الذي دام لأربعةٍ وعشرين عامًا، أنتظره في غرفتي جالسًا بين أوراقي أتظاهر أني لا أرى شيئًا على الرغم من أنني أستطيع تمييز جدران غُرفتي بسهولة، فعلى الحائط هذا أرى صورةً لطفلٍ صغير يبتسم ابتسامة بلهاء.. يُشبهني بعض الشيء، وصورةً لسيدةٍ تُشبهني في كل شيء عدا عينيّ الحزينتين، وصورةً أخرى لفتاةٍ تبدو كجائزةٍ كُسرت قبل أن استلمها، وبرغم الحزنٍ المنبعث من هذه الصور ومن هذه الغرفة؛ أجلس فيها الآن ضاحكًا كمن يشاهد فيلمًا كوميديًا، حتى كأس الخمر يضحك هو الآخر، أنا لا أؤمن بشيء، لا أعتقد أن هناك ثمة خطة لهذا الكون الفوضوي، ولا أعتقد أيضًا أن هناك فرصةً أخرى لكي نعود لهذا اليابس الملعون، أنا ناقمٌ على الحياة وعلى نفسي، على من تركني ورحل، على دعواتٍ دعوتها وظننت أنها ستُجاب، ناقمٌ على ليالٍ قضيتها في انتظار الغد الأفضل الذي لن يأتي أبدًا، ناقمٌ عليكم يامن تدّعون أنكم الأمة المنشودة، ناقم على كل شيء، وكأسي أيضًا ناقم عليكم.

يبدو أنها أنفاسي الأخيرة، مائتا مللي جرام من الزرنيخ كانتا تكفي لقتلي في الحال ولكن خمسين فقط يمهلوني الوقت الكافي

حتى أنتهي من كتابة هذه الرسالة، صفقوا أيها الأصدقاء لقد انتهتْ الكوميديا، أشعر وكأن أحدهم يقتلع صدري من مكانه، اعتدتُ على هذا الشعور منذ زمن بفعل الحزن ولكن هذه المرة أقوى بكثير، أُمسك القلم بجميع ما لدي من قوة ولكني لم أعد أستطع التحمل أكثر من ذلك.. إذا وقعت هذه الورقة بين يديك الآن فاعلم أن القرار لم يعد قرارك وحدك، هذه الأوراق التي بجانبك عليك بقراءتها جيدًا، وفور ما تنتهي منها عليك بحرقها أو نشرها، ولكن رجاءً لا تدعهم يقولون أنني هربت أو وهنت وكان الانتحار أول وأسهل اختياراتي بل أخبرهم بأنه كان أصعبهم وآخرهم، دعهم يبدرون بذور المحبة فالمطر سيأتي يومًا ما، أخبرهم أن الربيع قريبٌ فلا ييتأسوا، قل لهم لقد حاول حتى ضاق ذرعًا من الحياة ولم يتبقَ له شيء.. وإذا ذُكر اسمي في اليوم المنتظر ابتسم وقل.. مات وهو يحاول.



الغرفة مظلمة كالذي يدور في رأسي، الأصوات المخيفة التي تصدر من مروحة السقف أشعلتْ عمود إنارة في فص مخي الأيسر، في كل لفةٍ لها تزداد الفكرة وضوحًا، هي النهاية إذن، لا ليست النهاية، هذه الورقة التي قرأتها منذ قليل وراءها أسرار وقصة لا أعتقد أنها تُنبئُ بخير، ولكني أتذكر أنني قرأت أن هناك ورقًا

آخر عليَّ قراءته، هذا الشخص ليس بغريبٍ عليّ وأشعر أنني أعرفه تمام المعرفة، ربما قد ترك الورق بجانبِ هذه الورقة ولكن هواء تلك المروحة أبعدها عنه؟ لابد أن أجده وأقرأه وأن أعرف ماذا يريد مني ولمَ أنا بالتحديد، وإذا كان الورق هنا بهذا البيت إذن لن يخرج من هذه الغرفة، هذه هي الثلاث الصور الذي تحدث عنها، لقد وصفها وصفًا دقيقًا، صورةً لطفلٍ صغير أبيض وأخرى لفتاة شابة خمرية اللون وثالثة تميل للسمار قليلًا، «**الحزن سيدوم للأبد**» مكتوبة بخطٍ جميل وتتوسط الحائط الذي به الصور، بينما على حائط آخرٍ كُتب عليه «**صفقوا أيها الأصدقاء لقد انتهت الكوميديا**»، هاتان الجملتان قد سمعتُهما من قبل! أجل إنهما آخر ما نطقا بهما «**فان جوخ**» و«**بيتهوفين**» قبل انتحارهما! وفي الركن الأخير من الغرفة هنالك مكتبٌ لا يكاد يُرى من كثرة الورق، تنفستُ الصعداء لأن الورق حتمًا سيكون هنا لكن المهمة لن تكون سهلة بالمرة فالورق كثيف جدًا لدرجة لو أن أحدهم كان يدّون جميع تفاصيل حياته لن يكتب كل ذلك! ولكن الفضول قد بلغ أشده والحماس وصل ذروته، كان الورق مكتوبٌ بخط اليد وهناك رسومات بقلم رصاص، لدقائقٍ أقرأ وأشاهد الرسومات ولكن لا أفهم شيئًا، ظلَلت أبعثر الأوراق حتى وصلتُ إلى صندوق يبدو أن استخدامه سالفًا كان للمجوهرات والأشياء الثمينة، أسرعتُ بفتحه فإذا ما أبحث عنه، أثق تمام

الثقة أن هذا هو ما يريد مني قراءته، اسمه إياس! اسمٌ غريبٌ ولكنه يروق لي فأنا أحب الأسماء الغريبة هذه، أخذتُ الأوراق وجلستُ على الأرض ليتسلل إلى وجهي شعاع الشمس ينبئني أن الليل قد انتهى، إنها الخامسة صباحًا والأول من سبتمبر، النعاس يغلبني ولكن الفضول أقوى، مددتُ قدمي وسندتُ رأسي على الحائط وبدأت في القراءة..

إياس



لليوم الرابع لا أستطيع النوم، وكذلك حبوب النوم المتناثرة حولي لا تستطيع أيضًا، عيناي تحاول الصمود ضد مجهول وترفض أن تستسلم وتركع، ولكني لن أستسلم فمثلي لو نام لن يستيقظ ثانيةً، وبرغم أنني لستُ بحي ولكن هناك أشياءً تبقيني متنفسًا، فلولا الموسيقى ما حييت، أُحبها بكل ما أوتيت من نبيذ، أشعر أحيانًا بأن أصابع البيانو تتخلل شَعر رأسي حتى أهدأ، كذلك أوتار الكمانجا لها صِلة غير مفهومة بشراييني المُحمَّلة بالأكسجين، كل ذلك يمر على فتحات الناي فيطلق ثورته فتهب نيرانُ أحزانٍ لا تهدأ، لا أُبالغ بذلك، فلي شهود لا تُرد شهادتهم، اسألوا السماء عن طائرتي الورقية التي داعبتُها بها، واسألوا البحر عن سُفني الصغيرة إلى أي بلد وصلت الآن، وابحثوا عني في سجلات الموت علكم تدركون أنني قد مت قبل أن أُولد، ستدركون أنكم يومًا ما

ستنتهون إلى ما بدأتُه أنا، ستصِلون يومًا إلى جدارٍ لا تستطيعون عبوره إلا بحصاني، فتمعنوا جيدًا ما أكتبه فربما تحتاجونه يومًا ما، وربما يوم تصطدمون بذلك الظلام السرمدي تكون عيني قد سئمت من الصمود واستسلمت، والى أن يأتي ذلك سأكتب لكم ما حدث قبل أن يقف الزمن في هذه الغرفة حيث الخمر وأنا، إن كان لديكم إيمان بشيء فاتركوه قبل أن تقرأوا فإني لا أعلم ماذا سيحدث حين يأتي اليوم الخامس.



أنا إياس، ربما تستهجن أسماعكم اسمي وتسألون عن معناه ولكن لا أظن أن ذلك سيفيدكم في شيء، لا أعلم لماذا سُميت بهذا الاسم ولم تتسنَ لي رؤية من سمّاني به حتى أسأله، ربما كنت سأسأله عن أشياء كثيرة كلا شيء مثلاً، أعتقد بأن دقيقتين معه كانت تكفي لأسئلتي التي لم أجد من يُجيبني عليها سوى أمي التي كانت تُجيبني على حد علمها الذي لم يُرضِ فضولي، رحل في يوم مولدي في حادثة أشبه بنكتة هزلية، أتدركون معنى أننا في كل عام نطفئ الشموع احتفالاً بعيد ميلادي ثم نشعلها مرة أخرى تخليدًا لذكرى أبي؟ لم تصدق أمي ما قالوه عني وآمنت بأن حادثة سير اعتيادية أنهت ببساطة شديدة كل شيء! كانت تخبرني دائمًا أن ما حدث ماهو إلا قدرٍ، علينا جميعًا أن نرضى به، أي هراء تؤمن به أمي! لم أُصدق ذلك وعلمتُ تمامًا

ما معني كل ذلك وتعايشت معه، أتذكر عندما التحقت بالصف الأول الابتدائي وكان جميع الأطفال يبكون ويمسكون بأرجل أمهاتهم كي لا يتركونهم وحدهم وكيف كنتُ أنظر لهم متعجبًا مما يفعلون، وعندما دخلت الفصل لأول مرة ووجدتُني تلقائيًا أتجه إلى آخر مقعد في الزاوية، يومها دخلتْ علينا المعلمة وأخذت تتحدث معنا وتسألنا عن أسمائنا ومهنة آبائنا، وعندما جاء دوري أخبرتها أن اسمي إياس، تعجبتْ وسألتني عن معناه، تسأل طفلًا صغيرًا عن معنى اسمه! لم أجُب عليها فسألتني عن مهنة والدي فأخبرتها بأنه قد توفي يوم ولدت، أتذكر نظراتها حينها ولم تغب عن ذاكرتي للحظة واحدة، وكطبيعة الأطفال ظن زملائي أنني شيء مخيف عليهم اجتنابه؛ وفعلوا ذلك، ولكن عندما سألتني أمي لماذا لا أمتلك أصدقاء أخبرتها أنني لا أريد، وتكرر ذلك السؤال كثيرًا والإجابة لا تتغير، حتى سمعتني ذات يوم أقف أمام النافذة وأنظر للسماء **وأقول:**

- ماما قالتلي إن بابا عندك فوق.. وسمعت المِس بتقول إن ربنا سامعنا وشايفنا على طول.. إنت شايفني وسامعني بجد؟.. طيب لو انت سامعني ممكن تبعتلي أصحاب؟.. طب ممكن تبقى انت صاحبي؟.. وممكن يا ربنا تقول لماما تبطل تديني ساندوتشات جبنة؟.. انا مبحبش الجبنة وهي مصممة تخليني أكلها عشان أكبر.. هي ليه يارب عاوزاني أكبر مع اني كل ما أسألها عن حاجة

وتجاوبني واقولها مش فاهم فتقولي يابختك إنك صغير ومش فاهم!.. إنت سامعني بجد؟.. طيب شايفني إزاي وأنا مش شايفك؟.. لو بابا جنبك قوله يقول لماما تبطل تديني ساندوتشات جبنة.. أو يجي هو ويخليني أكلها وساعتها هقوله إني زعلان منه إنه مبيردش عليا لما ببص للسما وبكلمه.. مش هو عندك فوق ولا ماما بتضحك عليا؟

قاطعت أمي حديثي ومن المرات القليلة التي تنهرني فيها بشدة على ما أقول، لم أفهم ما الخطأ فيما قلت، ما الخطأ في أن أتحدث مع الله؟! وما الخطأ في أن أسأله أن يكون صديقي؟ أليس الله بأقرب لنا من كل شيء؟ أوليس الله هو كل شيء؟ إذن لماذا نهرتني أمي بهذا الشكل؟ لم أفهم حينها وأعتقد أنني لم أفهم حتى الآن.

كنتُ غاضبًا منها، ربما هي فعلتْ ذلك لأنني عندما أراها تتحدث مع الله تُحني رأسها وكأنها خائفة من حديثها معه، كيف لنا أن نخاف ممن لن يعاقبنا إلا إذا أخطأنا، وإذا خفنا من حديثنا معه وظننا أنه خطأ فمع من سنتحدث إذن، مَن هذا الذي لن يخطئ فهمنا إذا نحن أخطأنا فهم أنفسنا، أسئلة كثيرة كالعادة لا أجد مَن يجيب عليها فأتجه إلى سطح منزلنا ومعي صديقتي التي صنعتها بيدي؛ طائرتي الورقية، لم آأخذ وقتًا طويلًا في تعلم كيف أجعلها تُحلق في السماء حتى بالكاد أكاد أن أراها، لم تعلم

أمي أني في بعض الأحيان بدلًا من أن أرمي ما تعطيني من طعام أبيعه لأشتري خيطًا يجعل طائرتي الورقية تزاحم الطائرات التي تطير دون أن يتحكم فيها خيط! حتى أصبحت أكثر الأطفال في الحي بل ربما في جميع الأحياء ممتلكًا خيطًا لطائرته الورقية، يومها؛ جمعت الخيط كله وربطته ببعضه وأصبحت أُبعدها حتى أصبحتْ أصغر من تلك النملة التي احتَجِزها في دُرجي الصغير بغرفتي، لم أتوانى عمّا أفعل وأصبحت أبعدها أكثر حتى خِفت، خفت حينها أن تكون طائرتي الورقية قد اخترقت السحاب كله حتى وصلت إلى الله، خفت أن تخدشه دون أن أقصد، لم يتوقف الخوف عند طائرتي فقط، بل خِفت عليه من جميع الطائرات التي تطير من دون خيط يمكن أن تُسحب منه كما فعلت، ظللت أسحبها بسرعة شديدة أملًا مني أن لا يكون قد علم ذلك فيعاقبني أو لا يُنفذ لي ما طلبته منه، نزلتُ مسرعًا إلى أمي أرتجف من الخوف فاحتضنتي وظلت تسألني عن ما يُخيفني فلم أرد عليها وشعرت حينها أنه حين يعلم سيعاقبني فلابد لي أن أبقى هنا قليلًا حتى ينسى، هذا ما نحتاجه أحيانًا أن يحتضنا أحدهم دون أن يسأل ماذا بنا، ظننتُ حينها أن حضن أمي هو المكان الوحيد الذي لا يمكن لأي شيء أن يأذيني، كنتُ طفلًا ذكيًا إلى حد الغباء، كنت ماهرًا في اختلاق أسئلة لا إجابة لها برغم أن إجابتها لن تغير شيئًا، ولا أتذكر إن كنت أتحدث في شيء غير الأسئلة، كنت أجد في التحدث مشقةً وصعوبة وتَسبب ذلك كثيرًا في جعل

زملائي يضحكون عليّ، أعتقد أنه لم يكن زملائي فقط بل كان الجميع، أتذكر أن أمي قد اصطحبتني حينها إلى طبيبة متخصصة في التخاطب جعلتني ولأول مرة لي رغبة في الحديث مع أحد، أخبرتْ الطبيبة أمي أن لديّ مشكلة في مركز النطق نظرًا لتزاحم الأفكار وكثرتها، قالت لها أني سأصبح شيئًا عظيمًا يومًا ما فلا تحدُث تلك الحالة إلا للعباقرة على حد قولها، ساذجة تلك الطبيبة لا تعلم أني أكتب لكم الآن بعد ما وصلت إلى حد العبقرية في اللاشيء، ربما قد مللتم مما تقرأون ولكني أؤكد لكم أنكم بعد وقت ليس بالكثير ستعودون إلى هنا تقرأون مرة أخرى علكم تجدون ما تبحثون عنه..

لم يتغير شيء في تلك الفترة سوى أنني أصبحت لا أنظر إلى السماء حتى لايتذكرني الله فيعاقبني، وفي يوم ما؛ نادتني المعلمة وطلبت مني أن أكرر ما كانت تقوله، لم أنطق ً بشيء فنهرتني بشدة على شرودي الدائم وعدم تركيزي الملحوظ، فوجئت المعلمة بأنني أكرر ما قالته ولكن بطريقتي أنا، ومن سوء الحظ أنني لم أستطع التماسك وكتم أسئلتي التي تأتي دون سابق إنذار، كانت تتحدث عن الصداقة وكنت أكرر ما قالته أن الصداقة مع الأشياء الجميلة، وأن الصديق الجيد هو من يساند صديقه ويعاونه على فعل الخير، فاستوقفني سؤال وأنا اتحدث فسكتُ برهة ثم قلت **لها:**

ـ هو مش انتي قولتي يا مِس ان ربنا حلو ومفيش حاجة حلوة زيه؟

أومأَت برأسها موافقة ولا تزال الدهشة تعتري وجهها بالكامل، **فأكملتُ:**

ـ طيب ليه هو مش موافق نبقى صحاب؟ مش هو حلو والصداقة كمان حلوة؟ هو انا مينفعش يبقى معايا حاجتين حلوين؟

زادت دهشتها كثيرًا ولكن سرعان ما انفجرت فيّ كما فعلت أمي **وقالت:**

ـ ولد!.. انت ازاي تتكلم عن ربنا كده؟

نظرتُ حولي فإذ بجميع زملائي ينظرون إليّ كمن سيلقى عقابًا أليمًا جراء ما فعل، وصدق حدسهم؛ فقد أعطتني المعلمة في آخر اليوم مظروفًا وقالت لي أن أعطيه لأمي وألا آتي مجددًا إلا برفقتها، لم أفهم ماذا حدث وما الخطأ الذي اقترفته ولكن هذا لم يكن يشغل بالي، فقد كان جُل ما يستحوذ على تفكيري كيف سأعطي لأمي هذا المظروف، فكرتُ بألا أعطيها إيه ولكنها ستعلم يومًا ما حين تجدني لا أذهب إلى المدرسة وإن تصنعت المرض يومًا كيف سأصنع بباقي الأيام، فكرتُ أيضًا بأن أذهب إلى مكان آخر ولكني لا أمتلك مأوىً آخر غير أمي، فذهبت إلى البيت وفي أذني كلمات المعلمة بأن الصدق سينجينا وأن الكذب سيغرقنا، طرقت على الباب عدة مرات ولكن أمي لم تفتح، كانت

تلك المرة الأولى التي لا تلبي أمي ندائي فيها، جلست أمام الباب ساندًا رأسي عليه حتى وجدتُها تأتي من الخارج وبيدها مظروف هي الأخرى ولكن أكبر بكثير من الذي معي، لمحتها تمسح دمعتها سريعًا حين رأتني وجرت عليّ مسرعة وقبلتني، أمسكتْ بيدي ودخلنا البيت ثم تركتني وأسرعت إلى غرفتها، وكطبيعة طفل مثلي ثار فضولي وأسئلتي اللانهائية عن سبب بكاء أمي الذي لا يحدث أمامي إلا نادرًا، وإن كان الفضول ينتابني في كل شيء فماذا سيفعل بي إن تعلق الأمر بالشيء كله؟ إنها جميع ما أمتلكه، إنها ملاذي ومأوايَ الأول والأخير، تسللت إلى غرفتها حتى لا تسمع همس أقدامي الصغيرة حتى اقتربتُ من غرفتها فوجدتها تنظر إلى ما بداخل المظروف وتبكي، كنتُ قد لاحظت أنها في الفترة الأخيرة في كل يوم تصبح هزيلةً أكثر من اليوم الذي قبله، لا تأكل كثيرًا وكأن الله قَد استجاب لدعائي وأصبحت أمي تكره الأكل الذي أكرهه ولكن يبدو أن هناك خطأ ما قد حدث في دعواتي فكرهت أمي الطعام كله، قررت حينها أني سأعود لمحادثة الله مرة أخرى وأطلب منه أن يردّ دعوتي وتحب أمي الطعام ثانية وفي المقابل أني سأحاول أن أحب شطائر الجُبن، عُدت بالنظر اليها ثانية وجدتها قد هدأت وهمت بالوقوف أمام المرآة، ظلت هكذا لدقائق ثم خلعت حجابها وأمسكت بشعرها بيدها وأخذت تنظر إليه كنظرتها لي كل يوم وأنا أتركها ذاهبًا للمدرسة، ثم بكت

مرة أخرى ولكن هذه المرة كان بكاءً شديدًا لم أرَ مثله مطلقًا، بكت أمي وبكيت معها دون أن أفهم شيئًا..

وبدأت الأشياء في التغير، أصبحت جدتي تتردد كثيرًا على زيارتنا بعدما كنت لا أراها إلا مراتٍ قليلة وربما نادرًا، فهمتُ بعد ذلك أنها وجَدِّي كانا في عراكٍ دائم مع أمي لأنها قد تمسكت بأن تتزوج بأبي رغم عدم موافقتهما على هذه الزيجة، كانا يران بأن أبي لا يصلح لأبنتهما الوحيدة والمدللة دون إبداء أسباب واضحة، أو ربما كانت هناك أسباب واضحة ولم تشأ أمي أن أعرفها، ولكن هذا لايهم، فقد قبلا زواجهما في الأخيرعندما لم يجدا بُدًا من عنادهما ولكنهما قد أخبراها بأنهم لن يأتوا إلى بيتها ولتتحمل هي نتيجة اختيارها، كانت تحكي لي أمي كثيرًا عن قصتهما وكيف حاربا ليفوزا ببعضهما، أتذكر ابتسامتها وهي تحكي لي ذلك قبل أن أنام، وكيف حاربْتهما ثانية عندما توفي أبي لكيلا تتزوج بآخر وأن تعيش لأجلي فقط، ولكن تغير عنادهم قليلًا بعد وفاة أبي فأصبحا يأتيان إلى بيتنا، كانا يأتيان قليلًا ولكن يكفي أنني كنت أشعر في تلك الزيارات الباردة أن عائلتي لا تنتهى عند هذا الباب، كنت أشعر بحنان عارم من جدتي يختبئ خلف ذلك الوجه الناقم، أصبحتْ تزورنا كثيرًا ً وتتحدث مع أمي في غرفتها أوقاتًا طويلة

دون أن يسمحوا لي بأن أجلس معهم، ثار فضولي أكثر من ذي قبل فقررت أن أكتشف ما وراء كل ذلك؛ وليتني ما فعلت..

خرجتْ جدتي من الغرفة وتبعتها أمي وهي تمسح ما تبقى من دموع يبدو أنها كانت تنهمر لفترة طويلة، ولأول مرة تنحني جدتي إلَّي رأسي وتقبلني قبل أن ترحل، أخبرتني أمي أن عليها الذهاب مع جدتي إلى طبيب ولذلك عليّ المكوث هادئًا حتى عودتها، كانت أمي تثق بي كثيرًا وتتركني وحدي وهي تعلم جيدًا أني سأتعايش وحيدًا حتى تعود، ليتني ما اعتدت على ذلك.

دخلت غرفتها وقد أكلني الفضول فتقمصت دور بطلي الخارق حينها؛ المحقق «**كونان**»، أخذت أبحث عن ذلك المظروف الذي كان بحوزتها ولا أعلم ماذا سيستفيد طفل بالصف الأول الابتدائي عندما يجده ولكن كان ذلك السؤال من ضمن الأسئلة التي لم أجد لها إجابة حتى الآن.

وجدته؛ كان مكتوبًا باللغة الإنجليزية فلم أستطع قرائته رغم أنني كنت أقرأ اللغة العربية بطلاقة لا تناسب سني إطلاقًا، لم أعلم ماذا أفعل فتوجهت إلى النافذة ونظرت إلى السماء **وقلتُ:**

ـ ازيك يارب.. انا عارف ان انت زعلان مني بس انا مش كان قصدي.. انت عارف اني بحب الطيارات ونفسي اطير.. وانا زعلان منك يارب عشان ماما لسه

بتعملي ساندوتشات الجبنة وكمان مبقتش تاكل معايا..
هي ماما زعلانة مني يارب؟ طيب قولّها إني هاكل كل ساندوتشات الجبنة اللي في المدرسة بس هي متزعلش مني.. قولها إني مش بعرف أنام وهي زعلانة مني.. قولها متعيطيش وإياس بيحوش مصروفه كله عشان يجيبلك مناديل ولبن كتيييير عشان يكبر بسرعة.. انت سامعني يارب؟ سامعني صح؟ احنا بقينا صحاب مش كده؟

لم أشعر سوى بدموعي تملأ وجهي ولم يقاطعنا سوى صوت أقدام أمي وهي تخر على الأرض جالسة عند أول الغرفة، كانت تبكي بشدة هي الأخرى، يبدو أنها نسيت شيئًا وعادت لتأخذه فوقفتْ هنا وسمعتْ كل شيء، لم تنهرني تلك المرة بل فتحت ذراعيها لي لأترك الورقة وأجري عليها كظمآن وجد البئر أخيرًا، كفارسٍ هرب منه جواده قبل انتهاء السباق بثوانٍ، كطفلٍ يجري على أمه، ليس هناك تشبيه أبلغ من ذلك فلا داعي للتشبيهات، ظللنا نبكي مع علمنا ويقيننا أن هذا البكاء ليس بنهاية حزنٍ بل هو بداية طريق ليس لدينا الاختيار في سلوكه أم لا، سنسلكه رغم أنفنا ورغمًا عن كل أحلامنا وآمالنا وطائرتي الورقية، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعلم أن ذلك الفارس الظمآن سيظل يجري طيلة حياته أملًا أن يجد جواده قد هرب بحثًا عن الماء وأنه سيجده واقفًا ينتظره عند بئر ما، سيظل يجري.. يجري فقط.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أتعرف فيها على المرض بصورة مختلفة، فقد كانت كل معلوماتي عن المرض هو أنه السبب الوحيد الذي يجعلني لا أذهب إلى المدرسة دون اختلاق أسباب غير موجودة، كنت أحبه وأرحب كثيرًا بزيارته، ولكن منذ ذلك الوقت وأنا أبغضه، أبغضه بكل ما بداخلي من حب لأمي، لقد اختار الشخص الخطأ في اليانصيب الذي يتلذذ في اللعب به، خُيل المرض لي حينها كشخص قبيح الوجه كصديقه الحميم: الموت، يتقابلان يوميًا ويلعبان كعادة الأشرار في كل الأفلام التي رأيتها في التلفاز، وحين يخسر أحدهما يختار الآخر له اسمًا ضمن قوائم الضحايا التي نحن بها جميعًا ليزوره، لذا كان السبب الوحيد في مرض أمي بالنسبة لي هو أن المرض قد خسر في تلك الليلة فاختار الموت له أمي ليزورها المرض، وبدا لي حينها أن الاختيار لم يكن عشوائيًا نظرًا لأن أبي يسكن في المنطقة التي يملكها الموت، لم أهتم ماذا قد فعل أبي ليختارها المرض بدلًا من الموت ولكني لم أكن لأقبل أبدًا فكرة الاختيار العشوائي الذي علينا أن نرضى به دون أن نفهم الحكمة أو السبب وراءه، ليتني لا أتذكر كيف أخبرتني أمي بمرضها، كانت هادئة جدًا حتى تعجبت لماذا كنا نبكي منذ قليل؟ أتذكر حديثنا كأنه قد حدث بالأمس، فبعدما أنهينا بكاءنا قالت **لي:**

ـ انت كنت بتقول ايه لربنا؟

قالت لها وهي تمسح دموعي بيدها **فقلتُ:**

ـ كنت بقوله إنك مش بتاكلي معايا وانك زعلانة مني .

ـ بس انا ياحبيبي مش زعلانة منك.. ليه بتقول كده؟

أخذتُ شهيقًا طويلًا حتى لا أتلعثم ويصبح صوتي واضحًا خاليًا من آثار البكاء **وقلت:**

ـ عشان أنا لما بزعل منك مش باكل.

احتضنتني بشدة ثم **قالت:**

ـ لاياحبيبي انا مبزعلش منك.. انا بس تعبانة شوية.

فقلتُ مسرعًا ظنًا مني أنني أخيرًا قد وجدت ما كنت أبحث **عنه:**

ـ ااه زي كده لما بصحى مش قادر اتحرك واعطس كتير كتير فتقوليلي مش هروح المدرسة وتفضلي قاعدة جنبي؟

ضحكت أمي **قائلةً:**

ـ اه يعني كده.. بس هو أصعب شوية وبيخليني على طول مش قادرة أكل.

دُهشت قليلًا وسألت سؤالي **المعتاد:**

ـ ليه؟

فكرتْ قليلًا كأنها تتخذ قرارًا **صعبًا:**

ـ عشان هو مرض خطير.. مكنتش عاوزة اقولك بس معرفش انت ممكن تعمل ايه عشان تعرف.. ومينفعش تعرف من حد غيري عشان انا عودتك انك متهربش من حاجة فازاي انا اهرب منك؟.. عودتك انك لما حد يقولك اعمل حاجة وانت مش مقتنع تعملها متعملهاش.. عودتك انك تفكر وتسأل عن كل اللي مش عارفه ومتسكتش لو مش فاهم.. أنا ياحبيبي عندي مرض اسمه سرطان.. مرض وحش كده عشان نخف منه لازم ناخد دوا وحش برضه وبيوقع الشعر.. شوفت ياسيدي اتبسط اهو هبقى شبه حسام حسن اللي انت بتحبه.. بس انت بتعرفه ازاي من إبراهيم اخوه ده المعلقين بتوع الكورة نفسهم مبيعرفهمش من بعض؟!

لم تفلح في تشتيتي إلى موضوع آخر، فهي تعلم جيدًا أني لن أدع ما قالته يمر مرور الكرام، لم أقل شيئًا ولم أعلق على ماقالته لتردف **قائلةً:**

ـ هخف ياحبيبي متقلقش.. عاوزاك بس تبقى قوي كده عشان أعرف أتسند عليك.. ولا عاوزني أتسند على حد تاني غير راجل البيت!

أفلحت شباكها هذه المرة في اصطيادي فرددت بحدة **بالغة:**

ـ لأ أنا راجل وحتى بصي مش هعيط تاني عشان الراجل مش بيعيط زي ما المِس قالت.

تعجبت أمي مما قلت وعقبت **قائلةً:**

- مين اللي قالك إن الرجالة مبتعيطش؟ لا ياحبيبي ده غلط.. وزي مانا قولتلك قبل كده اسمع كل حاجة بس متصدقش كل حاجة.. ولما تحس إنك عاوز تعيط وتخرج اللي جواك اعمل كده ومتكتمش أبدًا يا إياس.

هززت رأسي موافقًا بهدوء تام وانقلبت شفتي السفلى معلنةً بداية بكاءٍ شديد وارتميت في حضنها تاركًا كل شيء فيه وكانت تلك هي المرة الأولى التي أوقن فيها أن حضن أمي لن يحميني من كل شيء، أيقنت حينها أن الله سيصل إليّ وقتما وحيثما شاء، فمن كان باستطاعته أن يقتلعني من حضن أمي إلى الأبد باستطاعته أن يفعل أي شيء، وبدأت معي أسئلة لانهائية ولم أجد من يجيبني حتى الآن؛ إن كان الله باستطاعته شفاء أمي ومرضها لماذا اختار المرض؟ وإن كان المرض سبب من أسباب الموت الذي هو مصيرنا الحتميّ لماذا اختاره دونًا عن الأسباب الأخرى؟ لمَ الحياة من الأصل ما دُمنا سنصل في النهاية إلى الحقيقة الوحيدة؛ الموت، لماذا العناء في حياة ماهي إلا جسر نعبره من الحقيقة إلى الحقيقة مرة أخرى! كنا موتى ومصيرنا الحتميّ هو الموت ثانيةً فلماذا الفاصل الحياتيّ إذًا؟ ما فائدة الشيء المؤقت إذا وُجد الشيء الدائم، أسئلة كثيرة لم أجد لها إجابة ولم أعلم ما الذي اقترفَته أمي لتسوء حالتها كل يوم عن اليوم السابق، أصبحتْ هزيلة وتساقط شعرها، بدا كأنه يهرب من وحشٍ مخيف، كانت يدايَ

مكبلتان لا أستطيع فعل شيء سوى محادثة الله ورجائي له أني سأفعل كل ما أكره فعله مقابل أن تُشفى أمي، أعلم أن كل شيء وله مقابل لذا كل يوم أفكر ماذا سوف أقدم له مقابلًا حتى تعود أمي إلى سابق عهدها ولكن لافائدة حتى بدأت في اليأس، بدأت أكرر في سؤالى له إن كان يسمعني أم أن صوتي منخفض، بدأ الشك في اغتيال إيماني خلسةً دون أن أشعر، أصبحتُ لا أكلم الله وتجنبته كما كنت أفعل عندما تضايقني أمي أو تمنعني من فعل شيء أريده، كثرتْ زيارات جدتي حينها وأصبح الدفء الذي كان يختبئ وراء غضبها مما فعلته أمي منذ زمن يظهر جليًا، ولكن جدي كعادة الرجال لا يغفرون، وإن أتى الغفران لن يصطحب معه النسيان، فذاكرة الرجال ظالمةٌ كنيَّة النساء، كانت زياراته قليلة ولكني كنت أسمعه كثيرًا يتحدث مع جدتي في الهاتف وكان كل حديثهما عن أمي وكم هو قلقٌ عليها وكم من الحزن والأسى يعتريه دون أن يظهر أيٌ منهم، كنت صامتًا كمن ينتظر شيئًا يجهله ولكنه يوقن أنه سيأتي، ولا أعلم تحديدًا ماذا كنت أنتظر ولكن ربما كنت أنتظر أن يصالحني الله أو أن هذا الدواء اللعين قد يدرك أخيرًا كونه دواء، أو ربما يأتي أبي ويخبرني أن كل شيء سيكون بخير.



علمتني أمي أن مايحدث في البيت لا يراه من يقف عند الباب، تعلمتُ منها أن أنتصر للمظلوم وإن كان الظالم من ذوي القربى لايجوز لي تصريحي بخطئه أمام أحد، أنصره مظلومًا وأرديه ظالمًا ولكن بيني وبينه، كانت تنصحني وتنهرني وتعاقبني بداخل بيتنا أما خارجه فأنا ولدها النابغة الذي لن يتكرر ولن يولد مثله مجددًا، أتذكر يوم أن أخبرتها بأن المعلمة أعطتني مظروفًا وأجبرتني على عدم القدوم من دون وليّ أمري، كانت أمي هي ولية أمرى وسيدتي وسيدة الجميع في نظري، غضبتْ مني عندما قصصت عليها ماحدث، وبرغم إيمانها بحسن نيتي غلب خوفها عليها وعليّ، وتصورتُ أنها عندما تأتي معي ستقول للمعلمة أنها أسفةٌ على جريمتي وأني لن أكرر ذلك، ولكن أمي لم تفعل ذلك، فقد دفعها حبها لي أن تقول مالم أستطيع قوله وأوصلها إلى الاقتناع بما أقول والتخلي عن الخوف ولو قليلًا، لم تستطع المعلمة أن ترد بالمثل فأمي كانت لبقةً وذات شخصية قوية، فلقد استقبلتها المعلمة بابتسامة ولم تبادلها أمي، كنت أسمع صوتَ عقل أمي **يقول:** «**من تلك التي تظن أن لديها سلطة على ولدي وفلذة كبدي وفرحتي الأولى والأخيرة**»، جلستْ أمي وأخبرتني أن أجلس بجانبها وكأننا لسنا بحجرة المعلمة، ملامحها الجامدة والعبوسة لم يكن من السهل تصديقها فمنذ قليل كانت تُجفف رأسي من آثار الماء وتجري ورائي ضاحكةً كأنها تملك الدنيا بين

يديها، كان حوارهما سببًا مهم في تكويني، فلقد افتتحت أمي الحديث **قائلةً:**

ـ إياس حكالي عن اللي حصل ومش شايفاه غلط في حاجة!

تعجبت المعلمة **وقالت:**

ـ مش شايفاه غلط!.. انتي عارفة كان بيتكلم عن ربنا ازاي!

ردت أمي **بحدة:**

ـ ولما طفل يكون بيغلط على فرض إنه غلط نزعقله قدام صحابه! لما يعوز يعرف حاجة هيسأل مين غير مُدرسته! وبعدين أصلًا ايه الغلط انه يقول عن ربنا انه عايزه يبقى صاحبه! الأطفال دي عندهم براءة وصدق مش عندنا فمينفعش نمنعهم يتكلموا مع ربنا ويحبوه بطريقتهم! يعني الأطفال يبقوا أحباب الله واحنا نمنعهم يحبوه!

اندهشت المعلمة وردت بحدة **مماثلة:**

ـ احنا بنمنعهم يحبوه ازاى! امال مين اللي بيشجعهم على الصلاة ويعلمهم دينهم وفروضهم! مين اللي بيحكيلهم قصص الأنبياء ويحفظهم قرآن!

قالت **أمي:**

ـ ايه علاقة اللي بتقوليه ده بالحب!.. انتي بتخليهم يعملوا مش يفهموا!.. انتي عمرك فهمتيهم يعملوا كده ليه؟..

عمرك سألتيهم بيحبوا ربنا ليه؟.. عمرك سألتيهم بيحبوا ربنا أصلًا ولا بيعبدوه وخلاص؟.. بيحفظوا بس.. بيعملوا كده عشان هو لازم يعملوا كده.. محدش بينزل لعقول الصغيرين دول ويكلمهم بطريقة تفكيرهم البسيطة ويستحمل أسئلتهم.. إحنا ظالمين وبنكررالغلطة اللي اتعملت معانا.

صمتت المعلمة ولم ترد، كانت مصدومة ومشتتة بين خشية التصديق والكبرياء، ونظرات أمي الصادقة الواثقة زادت من تشتتيها، لم أكن أفهم كل ماقالوه ولكن ثقة أمي بي وبنفسها قد زرعت بداخلي نبتةً لن تموت بفعل الرياح، خرجتْ أمي ممسكةً بيدي وذهبت بي إلى الفصل وقالت وهي تودعني بصوتٍ عالٍ ليسمعه كل من **بالفصل:**

ـ ربنا بيحبك يا إياس عشان ماما بتحبك.

وقتها نظر جميع الطلاب إليّ نظرةً مليئة بالإعجاب والذهول، لم أرد عليها ولكني ابتسمت فابتسمت هي الأخرى وذهبتْ، أتذكر يومها أن جميع الطلاب قد التفوا حولي واحدًا تلو الأخر لنصبح أصدقاء، عدا ابن المعلمة الذي كان يجلس بالمقعد الأمامي، وبرغم أنه كان أكثر المبهورين لم يأتِ، فالخوف الذي يقطن بوالدته قد تشعب بداخله، كان يومًا عظيمًا، كان الشعور بنشوة الانتصار كالمطر في يوم شديد الحرارة، ما أجمل أن يؤمن بك والديك، ولكن الأجمل على الإطلاق أنني أتذكر يومها من

شدة الفرحة وجدتني أُخرج كراستي التي أكتب فيها جواباتي إلى الله وكتبتُ بخطٍ كبير في منتصف **الصفحة:**

«**عزيزي ربنا.. أنا بحبك أوي**»



أعلم أنكم الآن بدأتم في فهم لمَ كل الغضب الذي بداخلي، ولكن ليس هذا كل شيء، أتذكر ذلك اليوم الذي كان صافرةَ البدء في السباق الذي لم أنتهِ منه حتى لحظتي هذه، كان العاشر من أغسطس، كانت أمي كذلك الفارس الذي أخبرتكم عنه، ولكن العطش والتعب قد نال منها ومن فرسها، وانتهت بها الصحراء إلى الصحراء، لاشيء حولها سوى اللاشيء، أتذكر أن جدتي في ذلك اليوم أخبرتني فور وصولي من المدرسة أن أمي تريدني، كان جدي يقف بمقربة من الغرفة كمن بُطرت قدميه ولكنه يأبى الجلوس، لا أعلم حينها لماذا تصنعتُ كل الأعذار التي تجعلني لا أدخل غرفتها، كنت خائفًا أن تكون هي المرة الأخيرة التي أراها فيها، كنت أعلم أنها سترحل يومًا ما ولكني كنت أتمنى أن أكون مخطئًا، أتذكر هيئتها كأنها قد تركتني بالأمس، كانت كالملائكة: تلبس رداءًا أبيض وقبعةً بيضاء تُخفي تحتها أثار الشعيرات التي هربت خوفًا وهلعًا من ذلك المرض الضعيف الذي يختار من لا يقوى على مجابهته، تمنيت دائمًا لو أصابني أنا بدلًا منها، كنتُ لأعلمه كيف تكون القوة وماذا يعني الانتصار في حربٍ ليست متكافئة، علمتُ حينها أن ليس أمامنا سوى دقائق وسوف

تغادر أمي إلى الحقيقة، إلى الربيع الأبدي، ستتركني وحدي في ذلك البرد القارس أواجهه عاري الرأس والقلب، شعرتُ بذلك حين رأيت ابتسامتها تُصارع الألم وتستقبلني كأن شيئًا لم يحدث، دنوت منها بهدوءٍ تام فوجدتها قد أشارت لجدتي لُتحضر شيئًا وتعطيه لي، لم أهتم لذلك الشيء الذي هو عبارة عن صندوق مغلف بطريقة جميلة لتشير إليّ أن أقترب منها لتقبلني وتحتضني بشدة، كانت تلك هي بداية النهاية، كان ذلك الحضن هو آخر ما أخذته من تلك الحياة، أتذكر ما قالت بصوتها العذب **الضعيف:**

- كل سنة وانت طيب ياحبيبي.. بقيت سبع سنين اهو يعني راجل اد الدنيا.

شعرتُ حينها بسخونة دموعي تهبط على خدي لتمسحهم وتردف **قائلة:**

- وبعدين مش إحنا قولنا هنبقى أقويا ونستحمل؟.. أنا عارفة انك راجل وهتسمع كلام تيتا وجدو ومش هتغلبهم.. وأديني اهو ياسيدي هعمل اللي انت قولته لربنا وهروح لبابا اقوله اللي انت عاوز تقولهوله.

انفجرت فيها كمن يحبس هذه الثورة منذ **زمن:**

- لأ ربنا مش حلو.. قولتيلي ربنا خد بابا عشان بيحبه ودلوقتي هياخدك انتي كمان عشان بيحبك ومش عاوز ياخدني انا كمان عشان مبيحبنيش.. طب انا كمان مش بحبه.

أكملت بهدوئها **المنهك:**

- بعد الشر عليك ياحبيبي.. لا ربنا حلو ومتقولش كده تاني.. ولازم تحب ربنا عشان ربنا بيحب كل خلقه.. إياس ياحبيبي كلنا هنموت.. ربنا حلو ولازم تحبه.

قالتها وأغمضت عينيها في سلام ورحلت، رحلت بهدوء كأنها لم تكن في حرب لا تُبقي ولاتذر، أجهشت جدتي بالبكاء أما أنا فما زالت كلماتها عالقة بأذني، علمتني أن لا أصدق جميع ما أسمع ولكنها نسيتْ أن تعلمني أن لكل قاعدة استثناء وأني يجب أن أصدقها في كل ما تقول، لذلك لم أصدقها وزاد غضبي ونقمي إلى أن وصل آخره، تركتهما يُجهزان أمور رحليها ودخلتُ غرفتي موصدًا الباب ورائي كما كنت أفعل طيلة أيام مرضها، ولم تكن جدتى بالتي تقحم نفسها في كل شيء، بل كانت إذا أرادتني تخبرني أن أخرج لها أو أن أفتح فور ما أريد، لم يكن ببالي حينها سوى الغضب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أقرر فيها أنني سأكتب كل ما أريد قوله، سأطيع أمي ولن أكتم ما أشعر به من ضيق، سأتخذ الورقة والقلم سبلًا للتنفيث عن براكيني الخامدة، أحتفظ بالورقة حتى الآن، وهذا ما قد كُتب **فيها:**

- عزيزى ربنا.. أنا إياس اللي مش عنده أصحاب خالص وطلب منك تبقى صاحبه وانت مش رضيت.. وقولتلك كتير كتير أني هسمع الكلام كله بس مش تاخد ماما عندك عشان مش بعرف أكل ولا أنام من غيرها.. هو

انت مش بتحبني؟ طب ليه مش خدتني معاها وهي رايحة عند بابا؟ طيب هو بابا كمان زعلان مني؟ بس انا مش عملت حاجة والله يارب.. هو انت مش خدتني معاهم عشان انت مش بتحبني ولا عشان انا مش بحبك؟.. هو انا لازم احبك عشان ماما قالتلي احبك؟ طب انا لو حبيتك هترجعهملي تاني؟ ممكن تقولهم إن إياس زعلان عشان سيبتوه لوحده.. أنا خايف اروح المدرسة تاني وصحابي يخافوا مني زي الأول.. ماما كانت بتقولي مش أخاف بس مش قالتلي ازاي؟.. انا خايف يارب.. خايف أنام وينسوا يصحوني.. خايف تيتا وجدو ينسوني.. ماما مش كانت بتنساني خالص.. ممكن ترجعها يارب وأنا هحبك والله ومش هخليك تزعل مني أبدًا.. أنت سامعني صح.. طيب شايفني؟.. انا قاعد في الأوضة وخايف أخرج منها.. مش عايز أخرج منها.. يارب لو سامعني وشايفني قولي أكتب عنوانك فين؟.. هو عمو اللي بيجيب الجوابات ده بيطلع السما؟.. يعني هو بيشوف ماما وبابا!!!.. رد عليا يارب لو سمحت لما يوصلك جوابي.

أغلقتُ الورقة وأصبحت أفكر كيف سأرسلها لله، أخذت أفكر كثيرًا ولم أعثر على حل وما كان لي أبدًا أن أُخبر أحدًا بذلك، جالت بخاطري فكرة مجنونة كالعادة فاستجبت لها بكل

قوتي، أسرعتُ إلى زوايةٍ بغرفتي وأخذت طائرتي الورقية وصعدت إلى السطح في غفلة من جميع من كانوا في البيت حينها، ظللت لدقائق طويلة انظر إلى الورقة وإلى الطائرة ثم علقتُ الورقة في الطائرة وجمعت كل الخيوط التي امتلكها وربطتها ببعضها وأخذت أبعدها أكثر فأكثر حتى أصبحتُ لا أراها، بدت كنجمة صغيرة في ليلة صيفية، وحينما أيقنتُ تمامًا أنها قد وصلت إلى أقصى ما يمكن أن تصله تركت الخيط يتفلت من يدي، تابعتها وهى تتساقط لاحول لها ولاقوة كما سقطت أمي منذ قليل، ومنذ ذلك الوقت وبقلبي غصة توقظني من النوم مفزوعًا، بداخلي جرحٌ عميقة جذوره، لم يجرؤ أحد على اقتلاعها، منذ تلك الورقة وأنا أكتب، أكتبُ ما تقرأون الآن، وأنا على عهدي القديم الذي أخبرتكم به؛ حينما تظنون أنكم قد وصلتم لطرف خيط يمكنه أن يدلكم على شيء فتيقنوا أنكم لن تصلوا بعد، لن تصلوا إلى الحقيقة التي أبحث عنها طالما بيدي عقولكم أوجهها حيثما أريد فكيف ستعرفون ما أجهله أنا؟ وهذه المرة لن أقول لكم بأنكم ربما تكونون مللتم لأنني أعلم تمام العلم أن فضولكم قد بلغ أشده، وأظن أننا لانمتلك خيارًا آخر.. سنكمل سويًا ما بدأته وحدي.



لقد انتصف اليوم الرابع، لازلتُ لا أستطيع النوم ويبدو أن النوم أيضًا لا يستطيعني، الورق المتناثر حولي لايزال لم يبلغ سقف الغرفة وذلك يعني أنني لم أنتهِ بعد، لم يكن موت أمي علامةً

فارقةً في حياتي فقط؛ بل كان بمثابة إعلان خصومتي مع الحياة وكل ما يمت للحياة بِصلة، رحلتْ عني وأوصت جدي وجدتي أن يعتنيا بي وأوصتني أَن أُطيعهما، حاولت قدر الإمكان أن أُنفذ ما قالته وللحقيقة لم أرَ أحدًا يعامل حفيده كما عاملاني، أفرغا عليّ من حنانهما مايكفي دار أيتام بأكملها، أحببتهما بكل ماتركته أمي من وجع بداخلي، أصبح جدي هو المرجع الأول في أسئلتي التي لا تنتهيً، يجيبني بمنطقية ولا يستصغر من عقلي أبدًا، تعلمت منه أن للجميع أراء مختلفة وواجب على الكل سماعها لا التصديق عليها، علمت حينها أن أُمي ماهي إلا فرع صغير قد نبت من هذه الشجرة المباركة، سألته عن الله وكيف يرانا فأجابني إجابة لم تذهب عن عقلي من وقتها، كانت منطقيته تروق لفضولي **كثيرًا:**

- ربنا بيشوفنا من فوق.. جرب كده تطلع فوق السطح وتبص على الناس تحت هتلاقي نفسك شايف أكتر بكتير من لما كنت بتشوفهم من قريب.. دايمًا كده يا إياس الرؤية من بعيد بتبقى اوضح.. تخيل بقى ربنا فوق الدنيا كلها! اكيد هيشوف كل حاجة اوضح واوسع.. ومش انت سألتني قبل كده عن الكاميرات اللي شوفتها متعلقة في محل اللعب فقولتلك ان صاحب المحل ده حاططها عشان يشوف كل الناس في المحل؟ قولى بقى ياسيدي انت لو بصيت للكاميرا هتشوف صاحب المحل؟

هززت رأسي نافيًا **ليردف:**

ـ اهو ربنا بقى ياعم إياس صاحب الدنيا دي كلها.. يبقى ازاي عاوز تشوف ربنا وهو شايفك من الكاميرات بتاعته؟

بدا له صمتي حينها أني قد اقتنعت بما قال ولكنه كان كمن أعطى لأسئلتي مخدرًا لتهدأ قليلًا، لم يعلم جدي أن ذلك قد أكد لي أن الله كان يسمعني حينما رجوت منه أن يشفي أمي ولم يستجب، كنتُ قد تصورت بأني حينما كنت قد ادعوه كان هناك من يدعو في الناحية الأخرى فاستجاب له الله ولم ينتبه لدعائي من الأصل، لذلك كنت أدعوه في أوقات مختلفة علّني أكون وحدي مَن أُناجيه في تلك اللحظة، ولكن جدي قد أوضح لي بأن رؤية الله تختلف عن رؤيتنا، فهو يستطيع سماعنا ورؤيتنا جميعنا في آن واحد، لم يبدُ لي الأمر منطقيًا وذهبت لمحل الألعاب ذات يوم ودنوت من المكان الذي تكون فيه الشاشات التي تعرض ماتُصوره الكاميرات، رأيت ذلك المكان عندما كان جدي يدفع لي ثمن ما اشتراه لي من ألعاب، ظللتُ أتابع الشاشات ولا شيء يتغير حتى رأيت الرجل يقلب الشاشات أمامه لتظهر أمامه الزاوية الأخرى للمحل! أهذا «**الريموت**» هو من يفعل كل هذا؟ أالله لديه مثل هذا الشيء ليرانا به جميعًا؟ لم يكن علمي بإجابات بعض الأسئلة يغنيني عن البقية أو يسهم في تقليلها بل العكس، كلما ازدادت المعرفة كلما ازداد فضولي أكثر، وجدت ضالتي في

جدي، عثرت على طرف خيط أيقنت أنه سيوصلني إلى الطريق الذي أبحث عنه، كان جدي هو المفتاح الذي يعبر بسهولة عبر أبواب رأسي دون أن يعترضه الحراس، بدأتُ في الأسئلة وبدأ في الإجابة مخاطبًا عقلي الصغير دون كلل أو ملل، يُشعرني أن ما أفعله هو الصواب بعينه أما الأطفال المنشغلون في الألعاب وأفلام الكارتون مخطئون، أنا الصواب ودربي الحق، كنت أصلي معه جميع الصلوات في المسجد المجاور للبيت، كان الجميع يعرفونه ويحترمونه، كان مسؤولًا كبيرًا بإحدى الشركات الحكومية ورغم ذلك مارأيته يذهب يوميًا للمسجد إلا بعباءةٍ بسيطة لاتشبه على الإطلاق البذلات الأنيقة التي يرتديها في الصباح ذاهبًا لعمله، تعلمت منه أشياءً كثيرة، كان لينًا صلبًا، غارقًا في الروتين اليومي ورغم ذلك تشتم برأسه ملامح العبقرية والتفكير خارج الصندوق، أخبرني ذات يوم أن من أكبر المشكلات التي ستواجهني عندما أكبر أني لا أكترث بوجود صندوق من الأصل، تمردي على القواعد وخروجي عن النص سيضعاني بدائرة المنبوذين، ولكني لم أفهم حينها، الآن فهمت، أذكر أنني في يومٍ سألته عن شيء قاله الخطيب في خطبة الجمعة، كانت الخطبة تتحدث عن مايحدث للإنسان بعد الموت، ذلك العالم الغيبي الذي يخفى على مدراك وأذهان الجميع، ماذا يحدث للبشر بعد الموت، وماذا بعد الموت، متى النهاية وأين، هل الموت نهاية أم أن هنالك نهاية بعد النهاية، لم أفهم من الخطيب شيئًا سوى أنه كان يصيح بصوتٍ عالٍ لكيلا

ينام البعض ومن حينٍ لآخر ينظر إلى الصف الأول مرتبكًا ثم يعود للصراخ من جديد، كان حديثه مُنصبًا في القبر وعذابه، قال بأن الروح تصعد إلى السماء وتترك الجسد يتوارى تحت التراب وحيدًا، وقال أيضًا أن المصير الحتميّ لهذه الروح إما الجنة أو النار، رأيت الجميع متأثرًا بما يقول بينما أنا شعرتُ بأن الحديث صعب **لا** يستوعبه طفلٌ مثلي، كان خائفًا وكيف لخائفٍ أن تصلني رسالته أو مايود قوله، تتناثر الدمعات في صراخه أما أنا أضع يدي على أذني من شدة الصوت، رأيت أحدهم يستيقظ فزعًا من صوته فرأى الجميع يبكون فبكى معهم، لم أستطيع حينها فهم لماذا يبكون وأنا أثق ان البعض منهم مثلي لم يفهم شيئًا! كيف للخوف أن يسيطر على العقل والقلب معًا، حينها سألت جدي بعد ما انتهت الخطبة وكنت **غاضبًا:**

ـ أنا مش فاهم حاجة ياجدو من الراجل اللي بيزعق ده.

ضحك جدي خفيفًا **وقال:**

ـ ايه اللي مش فاهمه بقى يا أستاذ إياس.

قلتُ بعدما امتصت كلمته «**أستاذ**» بعضًا من **غضبي:**

ـ ازاي الروح بتطلع عند ربنا والجسم بيفضل في الأرض! لما ماما ماتت مش شوفت حاجة طلعت منها.

زادت ضحكته **وقال:**

ـ لا ياسيدي الروح مبتتشافش.. عاملة زي الهوا كده انت عمرك شوفت الهوا؟

هززت رأسي نافيًا **ليكمل:**

ـ الروح زيها زي الهوا والملايكة.. مبنشوفهمش بس موجودين وبنحس بيهم.

تضاعفت الأسئلة برأسي أكثر فقلت **متعجبًا:**

ـ اه صحيح هو احنا ليه مش بنشوف الملايكة!

علت ضحكته هذه المرة **قائلًا:**

ـ إحنا مش هنخلص النهاردة.. تعالى نصلي السُنَّة الأول وبعدين نجاوب كل الأسئلة بتاعتك.

أومأتُ برأسي موافقًا لنقوم ونصلي سويًا، كنت أقلده في كل مايفعل، أقوم وأركع وأسجد، أُركز فيما يقول في السجود ولا أفهم شيئًا، كنت أحسبه يقلد العصافير ويزقزق مثلهم، لطالما كنت أتخيل أن الله يقف عند رأسي حينما أسجد، أخبرني جدي أن أدعو بكل شيء في سجودي فالله يكون أقرب من أي وقتٍ آخر، كنتُ أصمت من كثرة الكلام، لم أكن أريد شيئًا، فلقد رحل عني كل ما يمكنني طلبه، وأيضًا لم أكن متيقنًا إن كان الله سيسمعني أم لا، لا تزال الدعوات التي دعوتها لأمي عالقة عند شباك غرفتي، ولن يُكتب لها غير ذلك إذن فالأمل مقطوعٌ دابره، لن تأتي ريحٌ تُحرك تلك الدعوات وتقتلعها من الشباك وتصعد بها إلى السماء، لن تعود أمي، لن يشعر بي أبي، لن يتغير شيء، وحينما سألت جدي عن صوت الزقزقة هذا قال بأنه يُسبح، وأخذ يُعلمني ما يُقال في كل ركن من أركان الصلاة، حفظت كل ماقال دون أن أفهم وكان

ذلك دائمًا ما يُشعرني بأن هناك خطأً ما، وحينما فرغ من تعليمي طرحت عليه السؤال **مجددًا:**

ـ جدو انت قولتلي هتجاوبني بعد ما نخلص.

نظر إليّ ضاحكًا **وقال:**

ـ ماشي يا أستاذ إياس.. عايز تعرف ايه؟

ـ عايز أعرف ليه مش بنشوف الملايكة؟

سكت جدي قليلًا ثم **قال:**

ـ عشان ياسيدي هما مخلوقين كده.. ربنا خلق الملايكة من نور.. والنور ده مبيتشافش.

تعجبتُ منه **قائلًا:**

ـ بس إحنا بنشوف النور ليه مش بنشوفهم!

بدت عليه الحيرة بضع دقائق ليقول وهو **يقوم:**

ـ تعالى معايا.

قمتُ بحماسٍ شديد متطلعًا إلى تلك المغامرة التي تدور برأس جدي، كانٍ متحمسًا أيضًا! ما أجمل أن يشاركك أحدهم الاهتمام بتلك الأشياء التي تظن أنها لاتُهم أحدًا غيرك، كم هو عظيمٌ أن ترى من هو أكبر منك سنًا ينزل على ركبتيه لتصعد على كتفيه وتحاولان السير معًا مجتازان الحواجز التي يصنعها الزمن ويخلق بها فجواتٍ بين جيلٍ وآخر.

خرجنا من المسجد ورأيته يسير في اتجاه معاكس لبيتنا، أنا لم آلف هذا الطريق من قبل، لم ينطق جدي بكلمة والأغرب أني لم أفعل أيضًا، كان الحماس يزداد كلما ازدادت المسافة، حتى وجدته يقف فجأة ويرفع يديه ويتمتم بأشياءٍ لم أسمعها، حتى علا صوته **قائلًا:** «**السلام عليكم أهل الديار.. أنتم السابقون ونحن اللاحقون**»، نظر إليّ **قائلًا:**

ـ أنا مجبتكش هنا قبل كده عشان أنا مبحبش المكان ده.

قلتُ **متعجبًا:**

ـ ليه ياجدو؟

أردف:

ـ إنت عارف أصلًا إحنا فين؟

رددت **ببراءة:**

ـ أيوة إحنا في المقابر.

تعجب جدي **قائلًا:**

ـ عرفت منين؟

أكملتُ بنفس **البراءة:**

ـ عشان وإحنا ماشيين شوفت بيوت صغيرة كتيرة كل بيت عليه الكلمة دي.. وماما كانت بتقولي إنها كانت بتيجي تشوف بابا هنا بس مش كانت بترضى تجيبني.. هو إزاى بابا فوق عند ربنا وهنا في المقابر دي ياجدو؟

ـ أنا جايبك عشان كده.. المقابر ده مكان الناس لما بتموت بيدفنوهم فيه.. يعني فعلًا زي ما ماما قالتلك.. أبوك موجود هنا.

صمت قليلًا ليكمل بصوتٍ **متغير:**

ـ وماما كمان مدفونة هنا.

كانت الأسئلة تتصارع برأسي كشلالات مياهٍ من شدة السرعة وكثرتها، ولكن السؤال الأبرز كان كيف لشخص أن يحضر بمكانين في آن واحد؟ تسلل الدمع من عينيّ جدي وأخذ يواريه عن نظري، بكيت معه دون أن أعلم السبب، أمسك بيدي وجلسنا ساندين ظهرينا على أحد الحوائط، أتذكر نبرة صوته جيدًا، كان يبكي بصوته دون دموعه، تجاهل أسئلتي كلها وأخذ يتحدث كما لم أسمعه قبلها أو حتى **بعدها:**

ـ لما بنموت يا إياس الروح بتتطلع عند ربنا.. لكن الجسد ده مجرد بدلة.. زي كده اللي بلبسها الصبح وانا رايح الشغل.. مجرد مابتخلص مهمتي في الشغل برجع البيت وبقلعها.. عارف؟ أنا وتيتا فضلنا كتير من غير مانخلف لحد ماجت مامتك.. كانت أحلى هدية.. كأن ربنا بيجازينا على صبرنا.. انا اللي علمتها انها تفهم الاول وبعدين تعمل.. وهي علمتك كده.. جايز اكون غلطت لما نشفت دماغي ووافقتش على جوازها من ابوك برغم انا اللي علمتها تعمل اللي مقتنعة بيه مدام مش

غلط او حرام.. بس انا اب.. غِرت لمجرد انها حبت حد اكتر مني.. كنت عايزلها حد شبهي.. وزعلت اكتر لما سابتنا عشانه.. حسيت إني اتكسرت.. جايز هي حاولت كتير تصلح ده وتقنعني بيه لكن أنا كنت بقولها اني مش هسامح.. عبيطة وصدقت.. أنا عمري مازعلت منها.. أبوك راجل عظيم يا إياس وأنا اللي مربي بنتي وعارف إنها هتختار حد كويس.. بس احنا بني ادمين.. كان نفسي تعرف إنها رغم كل ده انا كنت بطمن عليها من بعيد لبعيد.. بكره تخلف وتعرف يعني ايه أب.. تعالى في حضني.. بشم ريحتها فيك.. يلا نقرالها الفاتحة.

بدأنا باسم الله الرحمن الرحيم، كنتُ أحفظها من تكرارها في كل صلاة أذهب لها مع جدي، خطر ببالي يومًا ما أنني ينبغي عليّ قراءة الفاتحة قبل بداية كل شيء، علمني جدي أن أقول بسم الله قبل الماء والطعام والنوم، لم تنقطع تلك العادة حتى وقتنا هذا، يصعب اقتلاع نبتةً غُرست بحنانٍ وحب، هوى جدي رميَ البذور بداخلي ولم يهوى عقلي حصادها، أشعر أحيانًا أنني أصبتُ بلعنة أزلية بسبب عقلي هذا، لماذا لا يرضى بأن المصباح هو الذي يُنير؟ لماذا يتتبع الأسلاك التي تنتهي بالمصباح؟ غير معقول أن تكون النهاية هي السبب! لابد وأن تكون الأسلاك هي سبب النور، لابد وأن تكون الكهرباء لها شكل ماديُ يمكنني رؤيتها، المصباح لا يُنير، المصباح أداةٌ تحركها قوة كبرى غير

مرئية يصعب على عقلي التصديق بها، مشتتٌ بين عدم التصديق بقوة غير مرئية وبين التصديق بأن المصباح هو الذي ينير، لكل شيء أصل وسبب، حتى الموت والمرض فسببهما وأصلهما هي الحياة، كان ذلك اليوم الذي قضينا معظمه أنا وجدي في المقابر يومٌ حافل بإجابات كثيرة ومنطقية على الأسئلة التي تستعمر رأسي وعقلي وراحتي، سألته عن ما سمعته عن عذاب القبر في خطبةٍ قالها الشيخ نفسه فأجاب **قائلًا:**

- القبر ده عامل زي محطة الإتوبيس، بتقعد فيها تستنى الإتوبيس اللي رايح المكان اللي انت اخترت تروحه بمزاجك.

تعجبتُ **قائلًا:**

- يعني لما أموت حد هيجي يسألني أنا عايز أروح فين وأختار؟

ضحك جدي عاليًا **وقال:**

- لا ياسيدي مش كده.. قبل ما نتولد ربنا بيدينا كتاب واحنا بنملاه باختيارنا.
- يعني ياجدو في ناس بتختار تروح النار!
- أيوة.
- مش فاهم ياجدو.. ازاى الناس بتختار النار الوحشة ويسيبوا الجنة الحلوة.

فكَّر جدي قليلًا **وقال:**

- بص ياعم إياس.. ربنا بيديلك الحرية إنك تختار اللي انت عايزه وبيكتبه.. وعشان هو عنده علم بكل شيء قبل مايحصل فهو عارف انت هتختار ايه وايه اللي هيتكتب.. فاحنا قبل مانتولد بيبقى متحدد هنروح الجنة أو النار بناءً على اختيارنا.

عقدتُ حاجبيّ مستنكرًا غيرُ فاهم مايقول، سكتَ هذه المرة كثيراً ثم قال وهو **يقوم:**

- يلا نروح.. هفهمك في الطريق.

ودعتُ أمي بعينيّ ورحلنا، أما هو نظر لها مبتسمًا نظرةً لم أفهمها، كنتُ أمسك بيده كأنه سيرحل في لحظتها، أخافُ من الفقد حتى أصبحتُ أخاف التعلق بشيء، لماذا أتعلق بحبالٍ ستنقطع يومًا ما، ما الفقد إلا درب من دروب الحب والتعلق، كنت أنظر له دائمًا حتى لايرحل مثلهم، أنا سئمتُ من الرحيل وسئمت من البقاء، كان يخبرني أن الرجل لابد أن يكون قويًا، جمع بين ما قالته المعلمة وأمي عن بكاء الرجال، قال بأنه ليس من الطبيعي ألا نبكي فنحن بشر ولكن لابد أولًا أن نختار من نبكي أمامهم، من نسمح لهم أن يرونا ضعفاء منعزلي الأسلحة، من نخبرهم أننا متعبون دون تجميل أو تشبيه، نقولها هكذا، نحن متعبون ومرهقون ونحتاج للراحة، فهمتُ ذلك حين كبرت، أيقنتُ الآن أننا بحاجة إلى من يتقبلنا كما نحن، بعيوبنا قبل مميزاتنا، من

يجبر كسرنا ويرمم عظامنا، نحتاج لمن يخبرنا أننا جُملاءُ دون تصنع، من لا يستنكر ويستصغر حزننا ووجعنا، نحتاجُ لمن يربت على يدينا ويخبرنا دائمًا أن كل شيء سيكون بخير.

فى ذلك اليوم لم يجاوبني جدي ولم أهتم وأسأله ثانيةً على غير العادة، تناولنا عشاءنا ودخل كل منا غرفته، كانت جدتي تجلس أمام التلفاز تُشاهد المسلسلات التي تشاركنا أنا وجدي في رؤيتها، شيء تافه لا ينبغى علينا الانغماس في أحداثها والانفعال مع الأحداث وانتظارها كل يوم! تشاركنا أيضًا في حب كرة القدم، وعندما نجحتُ في الشهادة الابتدائية وكنت الأول في الصف أهداني قميص النادي الأهلي الذي أحتفظ به حتى الآن، كانت جدتي يومها تتابع المسلسل التليفزيوني بشغف كالعادة أما أنا وهو دخل كل منا غرفته، هويتُ أنا إلى مكتبي أرسم رغم عدم قدرتي على التلوين، لطالما رأيتُ أن الأسود والأبيض مميزين لايحتاجا مساعدة، انهمكت في الرسم حتى سمعتُ صوت جدتي تصيح بأعلى صوتها، لم أهرع وأجري تجاه الصوت كالمتوقع، ظللت مكاني مترقبًا خائفًا راجيًا أن يكون هذا الصياح من هلاوس الرسم وخزعبلات خيالي، ولكن بطل ظني عندما نادت جدتي بإسمي، ذهبت إليها أقدم قَدمًا وأأخر أخرى، كان صوتها صادرًا من غرفتهما هي وجدي، كان جدي لايستطيع التنفس، اتصلت جدتي بالطبيب ليأتي بأقصى سرعة، هذا المشهد قد رأيته من قبل، يُعاد بمثل التفاصيل والوجع والحزن، تأكدتُ من ذلك حينما

رأيته يمد يده ناحيتي لأذهب له، جلستُ بجواره وجدتي تترقب قدوم الطبيب، كنتُ هادئًا كأن لا شيء يحدث، في رأسي سؤال واحد، هل سينتهي هذا المشهد بنفس نهاية الآخر، هل سيرحل جدي ويتركني وحيدًا مرةً أخرى؟ نظرتُ له معاتبًا ففهم، نظر لي متأسفًا ففهمت، حان وقت الرحيل، ولكني لم أستعد لذلك، كان يجب عليه إخباري قبلها حتى أستطيع البكاء، كيف أبكي لفقدان شيء لن أصدق أني فقدته؟ كان قد اشتكى قبل ذلك من الذبحة الصدرية هذه ولكني لم أتوقع أن ترديه أرضًا في مرة! كيف لشيء أن يفعل هذا ببطلي الخارق! كان ينظر لي نظرات غير مفهومة، يطلب مني التمسك به وعدم السماح لي برحيله وتارةً أخرى يطلب مني تقبل إفلات يده دون غضب، هذا التناقض قد نبت بداخلي حتى تشعب، كان يريد أن يتحدث معي ويخبرني بأشياءٍ ولكنه لم يستطع، ولا أخفي عليكم سرًا لم أكن أريد أن أسمع، للمرة الأولى لا ينتابني الفضول ولاتقتلني الأسئلة، فقط تكفل الرحيل بقتلي، أتى الطبيب وجدي يتلفظ أنفاسه الأخيرة، أومأ الطبيب برأسه لجدتي أنه لا فائدة، فلتجهزي مؤن الرحيل فزوجك سفره سيطول كثيرًا، أغمض جدي عينه مودعًا كل شيء بسهولة كأنه لم يكن منذ قليل يشاركني تفاصيلي الصغيرة التي لا يهتم بها أحد، لم يودعني ولم أكن لأقبل توديعه، تركتهم يفعلون ما فعلوه المرة السابقة كأنه روتين عليّ ممارسته دون اعتراض، لم أرَ جدتي بهذه القوة من قبل، فلقد غسلته وكفنته معهم، لم تكن

هذه التي ظننت لطيبتها وبساطتها أنها ستتيه إذا بعدت عن حدود منطقتنا، كانت قوية كيوم رحيل أمي، وكأن بيتنا وعائلتي يجذبون الموت كالمغناطيس، وكان من الطبيعي عندما رأيت المشهد يُعاد كسابقه أن أفعل مثلما فعلت، صعدتُ السطح مرةً أخرى، ولكن هذه المرة دون طائرةٍ ورقية أو جوابات، صعدت وحدي غير مخططًا لشيء، كنتُ أنظر للسماء بغضب، لماذا أنا؟ لمَ كل هذا الحزن؟ لمَ لا تحبني؟ لماذا تجعلني أحبهم وتأخذهم؟ هل تأخذهم لأني أحبهم أم لك سببٌ آخر! لم أشعر بنفسي وأنا ألتقط حجرًا من الأرض وأقذفه ناحية السماء بكل غضب وجنون، أسمعُ صيحاتٍ من الشارع ولكنى لم أهتم، ظللت أرمي وأرمي والغضب يزداد ويزداد حتى وجدت نفسي لا أشعر بشيء، الأرض تدور بشكلٍ سريع وأنا أدور معها بشكل عكسي، هل هذا هو الموت؟ هل هذا ما شعرا به؟ لم أعلم ولم أخف أيضًا، حتى وجدت نفسي أسقط أرضًا فاقدًا قوتي ووعيي، شعرتُ بأصواتٍ قريبة مني ولكني لا أميز أي منها، ثم شعرت بيدين تحملني وتضعني على كتفها، كانت جدتي، ومن وقتها قد أفلتت يد جدي التي قد التقطتني بعدما أفلتتني يدُ أمي، ووقفت جدتي حينها تستعدُ لتتلقفني ويأتي دورها، ومن وقتها وأنا أستعد لرحيلها، نسيتُ أن أخبرك بشيءٍ مهم، رحل جدي هو الآخر في اليوم المشؤوم، يوم ميلادي.. العاشر من أغسطس.



غربت شمس اليوم الرابع، الأوراق تملأ الغرفة الآن أكثر من الأكسجين، لا أستطيع التوقف عن الكتابة، لا يزال بجعبة الساحر الذي خطف قلوبكم الكثير والكثير، لا تغضبون مما تقرأون ولا تتعاطفوا أيضًا، قفوا عند المنتصف، تعودوا على الحياد، لا تحبوا شيئًا ولاتكرهوه أيضًا، علموا قلوبكم التجاهل والصمت، علموا أنفسكم أن الأسد ملك الغابة ليس لأنه أقواهم ولكن لأسبابٍ أخرى، فكروا قبل أن تفعلوا ومن الأفضل أن لاتفعلوا، لن يتغير العالم ولن يُحبنا، نحن الضعفاء المنكسرون الحاملين أثقالًا بقلوبنا وعلى ظهورنا، نحن الورثة الحقيقيون لهذه الأرض المستعمرة لأشباه البشر، نحن البشر الأصليون، من يحبون الخير للخير فقط، لانبتغي الشر سبيلًا للخير، نحن قليلون رغم كثرتنا، نحن سكان الليل، ستجدنا على المقاهي نجلس وحيدون منسيون لانعلم في أي أيام الأسبوع نحن ولا نهتم، أعتقد أن من قرأ هذه الأوراق من بدايتها سيجد نفسه بين السطور الآن، نعم أنا أنت ولكن بصيغةٍ أخرى، سأكمل لك ماحدث لأني أرى في عينيك فضولًا باهرًا ورغم ذلك لا تريدني أن أتوقف عن التحدث عنك بصيغة نحن، سأكمل لنا ياعزيزي حتى تجد ضالتك.

كانت جدتي مختلفة عن جدي في طباعٍ وأشياءٍ كثيرة، وعلى الرغم من ذلك كنت أرى حبهما متماسكًا كالجبل ولينًا كالصلصال يشكلونه كما يشاءان، لم أراهما يتعاركان أو يحتدان في نقاشهما إلا قليلًا، كانا يحبان بعضهما ويعلمان جيدًا كيف

يجعلان كفة الميزان لا تميل وإذا مالت تجاه أحدهما يبتسم الآخر راضيًا مسامحًا، وبرغم أن جدي كان صلبًا؛ ليس من هؤلاء الذين يتفننون في انتقاء الكلام الرومانسي ولكن تكفلت أفعاله بذلك، كنت أستيقظ مراتٍ عديدة أجده قد استيقظ قبلنا وأعد الطعام فتقوم جدتي فرحةً ولكنها تُخبئ ذلك بغضبٍ وتسأله لماذا فعل ذلك ولم يوقظها فيخبرها أنه يعلم كم تتعبُ في تنظيف البيت وتحمل مسؤولياتنا دون كلل أو ملل فيبتسمان لبعضهما وينتهي الحوار هنا، هذا الحب الذي صنعاه بداخلي ظننتُ أنه لا يحدث إلا في المسلسلات التي تشاهدها جدتي، كنا كل ليلة نجلس أنا وجدتي بالشرفة صامتين نحتسي أكواب «**الشاي بالحليب**» التي تجيد صنعه وننظر للسماء، وفي مرةٍ من المرات حدثتني عن جدي وحبها له، حُفرت كلماتها في رأسي وقلبي لشدة صدقها، كانت تضحك عندما أخبرتني عن كيف كانت تراه وحده برغم كثرة الحضور، فهنالك أوقات تتعذر على العين أن ترى غير شخصٍ واحد حتى وإن اشتد الزحام، ذلك الشخص الذي قد زُرع بداخلنا دون أي إرادة أو تدخل منّا، ذلك الذي يتحكم في مِزاجنا ويقلبه متى شاء، تلك المرآة التي نرى فيها أنفسنا عارين الروح والقلب، ذلك الذي خطر ببالكم الآن، من تستيقظون لأجله وتنامون لرؤيته، يومها هويت إلى فراشي ونمتُ وأنا أنتظر تلك الفتاة التي ستحول مجرى شراييني إلى أوردتها ونُدمج رئتينا فتصير أسباب الحياة واحدة، ولكن الغريب أن برغم انتظاري لها

منذ ذلك الوقت كنتُ أُبعد من يحاول التقرب والتودد مني، كنتُ أرى الراحة في البعد والوحدة، كنت وسيمًا على حد قول البنات اللاتي حاولن لفت نظري إليهن طيلة المراحل الدراسية، كانت فترة مراهقتي تشبه طفولتي إلى حد كبير كلاهما أسماء فقط، جسد يابسٌ وروحٌ يائسة، أتذكر أنه في إحدى المرات عند عودتي للبيت كانت جدتي بصحبة جارةٍ لنا بعمر أمي ومعها ابنتها أظنها كانت بعمري، كانت تتفجر أنوثةً وجمالًا، تظاهرتْ بالخجل حين رأتني فنادت جدتي عليّ وقدمتني إليهما، لا أتذكر اسمها ولكنى لن أنسى قُبلتنا الأولى التي أرغمتني عليها، في كل مرةٍ أصعد السلم أنظر تحته وأضحك وأحزن أيضًا، هذا المكان الذي شهد على أول قبلة مسروقة وأول لعبة لعبناها ونحن صغار، لم أحب تلك البنت ولكن أحببت اقتحامها لي، فرغم علمها بأنها لا تعجبني ولا يروق لي إدخالها دائرتي صممتْ على ذلك، كانت تكتبُ لي جواباتٍ مهولة، تتودد لجدتي كثيرًا وتساعدها في عمل البيت، ولكن جدتي كانت تفهمها ولم تحاول ولا لمرةٍ واحدة أن تُميلني ناحيتها، حتى أتت تلك البنت في مرة وأخبرتني أنها ستنتحر إن لم أبادلها مثل المشاعر التي تكنها تجاهي، حاولتُ إفهامها بأن ما تشعر به ماهو إلا مراهقة وأنا لا أستطيع مبادلتها ما تشعر به، لم يخطر ببالي حينها أنها كانت تقصد ماتقول، وجدوها بغرفتها قاطعةً طريق الدم بين معصمها وكفها، انتحرتْ ورحلتْ بسببي، لا أستطيع إخباركم كم حزنتُ عليها ولكن أستطيع التأكيد لكم أن جميع من

يحبونني يرحلون، رأيتم ذلك بأعينكم أليس كذلك؟ ولكن حتى لو عاد بي الزمن مرةً أخرى سأكرر ما فعلتُ، لن أستطيع إعطاءها ماتريد، كم هو مؤسفٌ أن يحبك أحدهم ولا تُحبه، أن يُعلق آماله بحبالك وتقطعها أنت دون أن تدري لتستخدمها في رياضتك المفضلة؛ نط الحبال، البقاء في الظل حتى لاتحترق بنور التعلق والعشق، ترسيم الحدود وتحجيم العلاقات، يُطلقون علينا ثعالبًا لأننا نعيشُ بين الأسود والأرانب، ولكن هذا جيد، إن لم تستطع أن تكون أسدًا على الأقل لا تكن أرنبًا، لاتكن دلوًا يملؤك الناس أو حوتًا يموتُ إذا يأس أو عقربًا يلدغُ إذا آمن أو سرطانًا يقتل إذا تملَك أو قوسًا تحت أمر سهمه، وبرغم صعوبة المحاولة؛ حاول أن تكون أسدًا، الأسود ملوكٌ لا يظلمون ولا يهربون ولا يخضعون.. الأسود ملوكٌ والجميع دونهم سواسية.

فكرتْ جدتي كثيرًا أن نرحل من البيت لسوء حالتي النفسية ولكني لم أوافق، لن يتغير شيء بتغير المكان، وبرغم كل هذا جاوزت مرحلة الثانوية العامة بمجموعٍ كبير أهَّلني للكلية التي أريدها، لطالما حلمتُ أن ألتحق بكليَّة الإعلام لحبي للكتابة وولعي بها، دائمًا ما رأيت الكتابة طريقةً سهلة للتنفيث عن الغضب الذي بداخلك، لقول ما لا تستطيع قوله.

حلمتُ كثيرًا أن أسافر يومًا إلى لندن لعشقي للبرودة والثلج، كانت لديّ نية مبيتة في هجرةٍ خارج هذا الوطن البائس الملعون، تلك البيوت والحوائط التي تتفنن في تذكيري بمن رحلوا، ولكن

جدتي كانت كالحائط القوى بيني وبين الرحيل، أتذكر أني عندما أخبرتها بنيتي في الهجرة ابتسمتْ وطلبت مني أن أؤجل ذلك بعدما تموت هي، قبّلتُ يدها مبتسمًا وأخبرتها أنني لا أطيق العيش من دونها وأني لن أرحل أبدًا، كانت تلك الفترة هي السمُ الذي اختبأ في العسل فتجرعته دون أن أراه، كنتُ أحب الذهاب إلى الكلية ولكن لا أحب الانخراط بين الطلبة، لا أحب البشر ولا التعامل معهم، كان حديثي يقتصر على الإجابة فقط، ولكن وسامتي هذه التي لطالما كرهتها قد سببت لي الكثير من المتاعب والمشقة، سمعتُ إحداهن تخبرُ صديقتها أنني شاذٌ وأخرى تخبر أخرى أنني أحب فتاة من خارج الجامعة فلا أتحدث معهن لذلك، سمعتُ كل ذلك.

حتى ذلك اليوم.. ذلك اليوم الذي تغيرتْ فيه خارطة أعضائي فما عاد قلبي بمكانه ولا بات عقلي يُتقن وظيفته، أعلم أنكم تريدون معرفة من هي وفضولكم لازال يقودكم، سأخبركم عنها، تلك التي جاهدت قلبي كي لا يحبها وجاهدني قلبها كي ينتصر، تلك التي أفاضت عليّ بعشقها فغمرني حتى بَطلَ تيَمُمي، ولكن مثلي لا تُقبل صلاته حتى يدين بدين التمسك للنهاية، فمثلي لا يؤمن بالبداية حتى يعتقد بوجود نهايةٍ من الأصل.



لم يتبق سوى ساعتين على انتهاء يومي الرابع من دون نوم، أشعر بالنعاس قليلًا ولكني لن أستسلم الآن، سأحكي لكم عنها، جِهاد؛ الفتاة التي جاءت على حين غفلة من الزمن لتثبتْ لي أن على الأرض ما يستحق العيش لأجله، أتذكر ذلك اليوم الذي قابلتها فيه جيدًا، فلقد غيّر إبريل عهده معي وعقد معي مصالحة، وعلى غير عادته الحارة فلقد أمطرت السماء في ذلك اليوم، الخامس والعشرين من إبريل، بداية الهدنة مع الحياة، أشعر بلسعة برد ذلك اليوم كأن الزمن قد وقف عنده ولم يتحرك، كان لقائي بها غير تقليدي كحال علاقتي بها بعد ذلك، لم اصطدم بها وأنا امشي فتقع الكتب فننحني لنلتقطها وتبدأ القصة التقليدية، لا لم يحدث ذلك، ولكن غرابتي واختلافي هما من جذباها ناحيتي، كان الجميع يجري هربًا من شدة المطر بينما أنا أجلس وحيدًا وبيدي كوب من القهوة كأن ما يحدث طبيعي جدًا وأنهم هم الغرباء، جريئة تلك الفتاة؛ جاءت وجلست بجواري دون أن تتفوه بكلمة كأن الجامعة بأسرها قد ضاقت عليها ولم يتبق لها مكان غير جواري، نظرتُ إليها وحاولت أن أختلق شيئًا أقوله لها ولكني أعلم أني لا أجيد ذلك، فعدت ثانية أتناسى ذلك الإحساس الذي هاجمني بغتة واحدة فتعلقت به؛ كم هو جميلٌ أن يشعر ساكن الوحدة بسّكان جدد في وحدته، لا أعلم كيف استمر المطر في ذلك اليوم نصف ساعة دون توقف على عكس عادة القاهرة، وكيف كانت تلك الجميلة هادئة كأنما على رأسها الطير، ترتدي

وشاحًا ورديًا ويتطاير شعرها من شدة الرياح كأنها تلتقط صورة توضح فيها كم أن الربيع جميل، لم تكن ثيابها ثقيلة كسائر القطيع وكأنها تتلذذ بالبرودة مثلي، أفلح تناقضها واختلافها في اصطيادي، تركني لساني وذهب يفعل ما يحلو له **وقال:**

ـ غريبة مبتجريش مع الناس دي يعني؟

لم ترد كأنها لم تسمعني، شعرت بشعورين متناقضين: الأول بحرجٍ شديد والآخر أنها غير موجودة من الأصل، ظللتُ تائهًا صامتًا حتى وجدتها تضحك وتنظر إليّ **قائلةً:**

ـ يااااه.. كل ده عشان تتكلم؟

لم أرد، كان شعوري بعدم وجودها هو الأكثر واقعية، فوحدتي الدائمة تفعل أكثر من ذلك وقرأت عن ذلك الكثير وأغلبكم سيفهم ما أقصد، استسلمت لفكرة أنني قد أُصبت بالفصام وأنها غير موجودة بالفعل، أشحت بنظري للناحية الأخرى حتى وجدتها تكمل **ضاحكة:**

ـ جريئة أنا مش كده؟ عموما أنا جهاد.

نظرت لها فوجدتها تمد بيدها وهي تبتسم فمددت يدي وسلمت عليها، تأكدت حينها أن ما يحدث ليس محض أضغاث خيالٍ فقط، هي حقيقةٌ وصدقتُ بذلك تمام التصديق حين وجدتُ فتاةً أُخرى تُقبل ناحيتها **قائلةً:**

ـ انا هفضل مستنية كتير!.. انتى مش قولتيلي هتجيبي قهوة وجاية؟

قامت وهمت أن تمشي معها ولكنها التفتت إليّ وهي تضحك **وقالت:**

ـ مقولتليش اسمك ايه؟

رفعت صديقتها حاجبيها مندهشةً مما قالت جهاد ربما لجرأتها أو ربما كان هناك سببٌ آخر لا أعلمه ولكنني رددت بهدوئي **المعتاد:**

ـ إياس.. اسمي إياس.

كانت لتقول شيئًا لولا أن صديقتها جذبتها من زراعها لتغادرا، غادرت ولكنها تركت ذلك الإحساس يُضفي الألوان على عالمي المظلم، رائحتها وشعرها المتطاير وضحكتها وجرأتها كانوا معي، شعرت حينها أني لأول مرة أتنفس دون عناء، أنتشي كأنني بيتهوفن والهواء بيانو، وكأن ما حدث كان لفيلم سيعرض في سينمات ذاكرتي طوال العمر، فما هي إلا لحظات حًتى انتهى المطر وهدأت الرياح وعادت الشمس ثانيةً إلى وسط السماء كأنها كانت تأخذ قسطًا من الراحة، كفّ الجميع عن الجري والهرولة

إلا قلبي؛ سمعته ينهج كذلك الفارس الذي لن أمل من الحديث عنه، ولكنه لأول مرة قد وجد الماء، للمرة الأولى أشعر فيها ان هناك سبعة الوان ينتج منهم مائتين آخرين ورغم ذلك ما كنت أرى غير لونين فقط، لا أعلم مكانها ولا أي طريق يصلني بها ولكنى كنت واثقًا بأن ما أتى بها مرة سيأتي بها ثانية، ورغم ذلك الشعور الجميل الذي ما ألفته يومًا خِفتُ، خفتُ كأنني أحببتُ ظلمتي ووحدتي، وكان ذلك طبيعيًا لأنني لم انتظر يومًا أن أشعر أن الحياة ستبتسم ليقيني أنها لا تمتلك فمًا من الأصل، قررتُ حينها أنني سأقطع دابر هذا الأمر قبل أن يبدأ، لم أذهب إلى الجامعة لمدة قاربت الأسبوعين حتى بدأت في إيهام نفسي أن الشعور قد بدأ في التفلت من قلبي رويدًا رويدًا فحينها يجوز أنني سأستطيع التماسك إن رأيتها، وكأنني قد قاربت على إدمان شيء لذا كان علي الهروب، الهروب خوفًا من إدمان أصعب من الادمان نفسه، الهروب جيد، جيدٌ إلى حد كبير.

ولكن؛ كان لسوء الحظ الكلمة العليا في كل ما أريده، كانت امتحانات منتصف العام قد أفصحت عن نيتها في القدوم فكان لابد عليّ أن أستعد لخوض تلك المعركة التي أهاب مشاهدتها من بعيد فكيف بالمشاركة فيها بصفتي محاربها الوحيد، لا أتحدث عن الامتحانات فلم أكن أهابها على الإطلاق، كنت طالبًا متفوقًا طيلة فترة دراستي ولا أعلم لماذا، ذاكرتي قوية إلى حدٍ يُضعفني كثيرًا، قوة ذاكرتي هذه كانت سر تفوقي في الدراسة وسر تعاستي

في الحياة، لم تغب جهاد عن بالى للحظةٍ رغم تظاهري بعكس ذلك، وإن كانت لدي القوة على التماسك وهي بمنأةٍ مني فماذا سأفعل إن تضاءلت المسافة بيننا وتعانقت أعيننا، كنتُ أدس بعقلي فكرة لا يرجوها قلبي، فمن غير المحتمل أنه من بين هذا الكم الكبير من الطلبة سأراها حتى ولو بمحض الصدفة، كنت كحبلٍ يشده من أحد الأطراف قلبي والآخر يقف عقلي عنده ممسكًا به بفصّيه الاثنين، كان عليّ الوقوف في صف الأقوى وأتغاضى عن طبيعة بني آدم الخالدة في التعاطف مع الضعفاء، كان عليّ الوقوف بجانب عقلي.. كان عليّ ذلك.

لم يكن أبريل وحده مؤرخًا لما حدث، بل أتى مايو أيضًا حاملًا بيديه قلمًا وأخذ يدوّن به ما سيكتبه على الجدران ولن يراه غيري، أخذ يحفر بأنيابه تفاصيلًا وذكرياتٍ لا أمتلك خيار نسيانها، نعم قابلتها، كانت كما تركتها منذ أسبوعين: الوردة الوحيدة التي نبتت في الصحراء، ربما لأنها لا تشبه غيرها من الورود، فشعرها يتطاير حولها خاطفًا معه الأضواء والأعين، لا تكترث بشيء مما يحدث حولها حتى أنا، عبرت بجواري كما تمر الغزالة أمام فهدٍ جائع ولا تهتم لأمره، الجميع مروا بجواري إلا هي عبرت من خلالي كأنني قد تحولت لزجاجة خمرٍ شفافة، كان جسدها يتحكم بعظام رقبتي ويحركها حيث ذهب، تتبعتها بعيني حتى وجدتها تقف لتشتري قهوةً من نفس المكان الذي كنا نجلس بجانبه في المرة السابقة، وصل الصراع أشده؛ أأذهب

لها وأنهي ذلك الشجار الذي يحدث بداخلي أم أن الشجار أفضل بكثير مما سيحدث بعد ذلك، ظل عقلي يطرح هذه الأسئلة ولا أحد يجيب عليه حتى قام قلبي وقال **له:** هل تعلم ما سيحدث بعد ذلك؟ هل الذي سيحدث بعد ذلك أسوأ مما نحن عليه الآن؟ هل سيكون أسوأ من معاركنا الدائمة؟ بالطبع كانت جميع الإجابات واحدة؛ لا، حينها بدأت في الابتسام مجددًا فلقد عدتُ إلى الأسئلة من جديد، الآن أستطيع إجابة الأسئلة التي تخطر ببالي دون أن أسأل احدًا، بدأت في التحرك نحوها مبتسمًا كأنني لا أرى أحدًا ممن حولي، أراها هي، أراها وحدها، تشرب قهوتها وتنظر إلى الورق بتركيز شديد، وقفتُ أمامها لا أعلم ماذا أفعل وماذا سأقول ولكن الابتسامة البلهاء تلك لم ترُح من وجهي، دققتُ النظر في الورق لأفاجئ أنها معي في نفس الصف، أيعقل أنني طوال هذين العامين المنصرمين لم أرها إلا اليوم؟! بالطبع منطقي جدًا فأنا لا أعلم أحدًا ممن هم في صفي، لا أختلط بأحدٍ وليس لدي أصدقاء من قريبٍ أو بعيد، ظللت ساكتًا ساكنًا لا أصدر صوتًا أو أتحرك، الزمن يقف أمامها غير مكترثًا بكونه زمن، كل من له حركة دائمة يتوقف عنها، كانت جميلة كالقاهرة بين منتصف الليل والخامسة صباحًا، رفعتْ عينيها بسرعة فور ما لاحظتْ أن هناك رجلًا غريب الأطوار يقف أمامها دون أن ينطق بشيء، تلعثمتْ وكأنها قد تفاجأت برؤيتي، وبرغم خوفي من مقابلتي لها إلا أنني ولأول مرة أهتمُ بظهوري الأنيق، ابتسمتْ **قائلةً:**

ـ إياس إزيك.. واقف ساكت ليه كده!.. انت واقف من بدري؟

ابتسمتُ أنا **الآخر:**

ـ يعني من شوية.. شوفتك مركزة محبتش أزعجك.

أغلقتْ جميع الأوراق أمامها وقالت **بترحيب:**

ـ لا طبعًا يابني تزعجني ايه بس.. ده انا مبسوطة أني شوفتك.

رددتُ بابتسامة **سخرية:**

ـ ده على أساس إنك مشوفتنيش وانتي جاية؟

رفعتْ حاجبيها **وقالت:**

ـ يا سلام!.. وانت مين قال إني شوفتك ما ممكن أكون مخدتش بالي عادي.

أشحتُ بنظري للناحية الأخرى وأنا أُكمل **ساخرًا:**

ـ مشوفتنيش ازاى وانتى كنتي بتدوري عليا؟

تعجبتْ وحاولتْ إخفاء **توترها:**

ـ انت جايب الثقة دي منين!

عدتُ بنظري تجاه **عينيها:**

ـ متسأليش.. عشان الإجابات عمرها ماهتريحك.. بالعكس هتخليكي تسألي أسئلة تانية.. أعرف واحد

فضل يسأل طول حياته عن حياته وملقاش إجابة لحد دلوقتي.

ـ مش فاهمة حاجة يا إياس؟

صمتُ للحظاتٍ **وقلتُ:**

ـ مش مهم.. ذاكري وركزي دلوقتي بس عشان تحِلي كويس.

لم يرضها ردي ولكنها تظاهرتْ بذلك **قائلةً:**

ـ انت بتروح مكتبة مصر العامة كتير.. مش كده؟

تعجبتُ من **سؤالها:**

ـ اه بحب اقعد هناك.. وبحب القراءة جدًا عمومًا.. بس عرفتي منين؟

أشاحت بنظرها في اتجاهٍ آخر **قائلةً:**

ـ انا كمان بحب القراءة والكتب.. ومكتبة مصر العامة.

عادت بنظرها إلي ثم **قالت:**

ـ انت في سنة كام وقسم ايه؟

ـ سنة تانية قسم صحافة.

فتحتْ عينيها على آخرها **مندهشة:**

ـ بتهزر!!.. انت معايا في نفس القسم والسنة؟

ضحكتُ بصوتٍ **عال:**

ـ ده على أساس انك مش عارفة برضه؟

غضبتْ وظهر على ملامحها ذلك، فالأنثى لا تحب أن يُكشف ما تحاول إخفائه، تحبُ دائمًا أن تظهر ذكيةً تخطط وتُدبر وإن علمتَ تدابير هذه الخُطة لا تُفصح بأنك تعلم، دعها تتوهم أنها تنتصر، دعها تفعل ذلك.

ـ لا طبعًا معرفش.. أنا أول مرة أخد بالي منك كانت المرة اللي فاتت.

قالتها وجمعت أغراضها وهمت بالرحيل، لم أُحرك ساكنًا ولم أقل لها لا ترحلي، كنتُ أمزح، كانت لابد عليها أن تفهم حينها أنني لن أطلب منها عدم الرحيل أبدًا مهما حدث، لم تفهم وعادت ثانيةً بعدما تقدمت بخطواتٍ وقالت بغضبٍ **أكثر:**

ـ هو انت مش وراك امتحان انت كمان!.. واقف مستني ايه؟

ابتسمتُ ومشيتُ معها، كان وجهها الطفولي الغاضب يروق لي كثيرًا، كانت جميلة، جميلة جدًا، ولم أكن كذلك.

ذهبتُ إلى البيت في ذلك اليوم ووقفت أمام المرآة، تحدثتُ إلى نفسي دون أن أحرك شفتي، كنتُ أدرك أنني أقف على شفا حفرةٍ من النار، هي جميلةٌ وبها جميع الخصال التي تمنيتها دائمًا، ولكن هناك خطأ ما لا أعلمه ولا أعلم أين ولكن كان بمثابة جرس الإنذار المزعج الذي يصرخ حين يراني أشرعُ في تذكرها وأضحك، الضحك والفرح ممنوعان هنا، لا تغفل عن حقيقتك، ما أنت سوى أداةٌ للموت، لا تقترب منها فهي سترحل حتمًا، لا

تكن أنانيًا فأنت تعلم جيدًا أنك ملعون، لا تقترب ولا تعطِ لقلبك إشارة المرور الخضراء، ازدحام الأحزان والذكريات والأوجاع هو قدرك الحتميّ فلا تنس ماهيتك، دعها وشأنها، وإن شئت فأخبرها عن حقيقتك، أخبرها عن الراحلين بسببك، أخبرها عن الدعوات والصلوات المنسية، حدثها عن ربك، حدثها عن الخوف والرجاء، سلها أسئلتك التي لم ولن يجيبك عليها أحد، وبعد كل ذلك لا تترك لها فرصة الاختيار فلربما تهملُ كل ذلك وتختارك، ربما تكون هي الصلح بينك وبين العالم فلا تنخدع، لن يحبك العالم ولن يصالحك، دعها وشأنها يا إياس وأجبر نفسك على الوداع قبل أن يجبر الوداع نفسه عليك كالعادة.

في صباح يوم الامتحان التالي؛ تعمدتُ أن أرتدي لوني المفضل.. الأسود، كان كل شيء أسود في هذا اليوم؛ ملابسي ونظارتي وحذائي حتى قلبي، الوقت قد أزف وبدأ الامتحان وكنتُ أقصد ذلك، وصلتُ قبل أن يبدأ بثوانٍ قليلة، الأنظار كلها تتجه نحو ذلك الشاب الذي يرتدي لونًا واحدًا، لم يكن بحسباني أبدًا أنني سأجدها تنتظرني وتشير إلي وإلى مكانٍ خالٍ بجانبها لأجلس ولكنني تجاهلتُ ذلك، جلستُ في مكاني المفضل والدائم، ركن الزاوية، بدأتُ في الحل وقبل أن ينتهي الوقت بدقائق كنتُ أول من يعطي ورقته للمراقب ويخرج، لم ألتفت ورائي فأنا أعلم أنها تنظر إليّ ولا تفهم شيئًا، كنتُ أُسرِعُ من خطواتي حتى لا تلحق

بي رغم كوني غير متأكد من ملاحقتها لي ولكن كان الشعور بأن أحدًا ما يلاحقني ويريدني غير الحزن كان شعورٌ جيد.

كررتُ ما فعلتُ مرةً أخرى، كانت تنظر لي بغضبٍ وتظاهرتْ بعدم الاهتمام، فطبيعة الأنثى لا تعترف بأنها قابلةٌ للرفَض، وتكرر هذا كثيرًا حتى آخر يوم في الامتحانات، كان الأول بعد العشرين من مايو، وصلتُ كالعَادة قبل بدء الامتحان بدقائق ولكنني لم أستطع مواصلة تكرار المأساة فبدأتْ مأساةً جديدة، كانت تقف أمام الباب تنتظرني، توقعتُ أنها ستنهرني وتنهال عليّ بأسئلةٍ من نوعية من تظن نفسك ولماذا تفعل هذا، هذه الأسئلة التي يكون غرضها التوبيخ ولا شيء آخر، ولكنها لم تفعل، ابتسمتْ فقط **وقالت:** «**لا تغادر مبكرًا وانتظرني**»، قالتها والتفتتْ دون أن تنتظر ردي، لن أنكر ذلك نعم أعجبني ما فعلتْ، ووجدتني تلقائيًا أذهب وأجلس بجانبها في صمتٍ تام، كنت تحت تأثير تخديرها الذي لم أألفه من قبل، كانت تلك هي المرة الأولى التي أجد فيها من يفهم اختلافي ويتعامل معه، لم تنهرني لما فعلتُ معها بل ابتسمتْ، هذا أنا، وهي تعلم ذلك، طفلٌ كبير، تعامل معه بلطف أو دعه وشأنه، تحمل تقلباته المزاجية وتيقن أنه لا يحب البكاء ولكنه لا يدري كيف يخبر الآخرين بما يريد وهو لا يتكلم لغتهم وهم لا يفقهون لغته، لم أتعجب من أنها بين كل فترةٍ وأخرى تترك الامتحان وتسألني هل أحتاج شيئًا أم لا ولكنني كنتُ أُطمئنها بابتسامة هادئة فتكمل لتعود وتسأل ثانيةً بعد فترةٍ

وجيزة، كنتُ أود حينها أن أخبرها بكل شيء، كانت تنظر إليّ كما كانت تنظر إليّ أمي، لم أفهم لمَ تفعل معي هذا رغم أنني لا أفعل لها شيئًا، ولماذا أنا فالكثير هنا يتمنون فقط أن تنظر لهم حتى ولو شزرًا، فكرتُ في إخبارها بكل ذلك وأردتُها أن تُخبرني عن إجابات هذه الأسئلة ولكن فور انتهاء الامتحان وجدتها تضع أمامي ورقةً دون أن تنظر إليّ، هممتُ أن أفتحها ولكن المراقب كان ينظر نحوي فوضعتها في جيبي، التفتتْ إليّ وهي تضحك فتيقنتُ أنني فعلت الشيء الصحيح، ولكن كان الغريب حقًا أنني خرجتُ ولم أجدها! أتذكر أنني شعرت بالقلق وكان هذا غريبًا عليّ، تفقدتُها بعيني ولكن ليس لها أثر، وقفتُ تائهًا للحظاتٍ ثم تذكرتُ الورقة ففتحتها وبدأت في القراءة، سأقرأ لكم ما كان مكتوبًا فأنا أحتفظ بها إلى **الآن:**

«**عزيزي إياس..**

أعلم أنك متعجبٌ مما أفعل، وأعلم أيضًا أن هناك أسئلةً كثيرة تدور برأسك ولا تجد لها إجابة، ولكن دعني أُخبرك شيئًا، لم تكن تلك المرة التي رأيتني فيها هي المرة الأولى لنا، لا تندهش فأنا أعرفك جيدًا يا إياس، لطالما كنتَ شبحًا يطاردني، ربما تتعجب أيضًا أنني لست مستاءةً مما فعلتْ ومن غموضك وصمتك لأنني أعرف خوفك وجزعك، أرى الحزن الذي بعينك بُحورًا وأراك تُبعد القارب بيد طفلٍ غاضب، أتؤمن بأن لكل شيء مقابل؟ لن تُصدق هذا ولكن بداخلي يقين راسخٌ بأنني مقابل

كل هذا الحزن الذي حزنته وستحزنه، بداخلي أمومةً تكفيكَ قرونًا وقرونا، لا تتعجب مما تقرأ، ولكن كُن شجاعًا فالحياة تعطيكَ فرصةً واحدة للصلح فاغتنمها، وأنا أيضًا أعمل على ذلك وهذا الجواب هو البداية».

أغلقته وبداخلي شعورٌ لم أسمح له قبل ذلك بالتسلل لقلبي، كان شعور بأملٍ جديد في البقاء حيًا، أبتسم منتشيًا وأبحث عنها كطفلٍ فقد أمهً في السوق أو سمكةً تتفقد الطريق إلى الماء، لم يكن لها أثر، وكان من الطبيعي أنني سأعود للبيت ناسيًا مهملًا كل ذلك، ولكن هذا لم يحدث، وجدتني أذهب إلى المكان الذي تقابلنا فيه لأول مرة واحتسينا القهوة سويًا، وصدق حدسها حين وجدتها تجلس في المكان الذي كنتُ أجلس فيه، ابتسمتْ فور ما رأتني **قائلة:**

ـ ايه اللي أخرك كل ده!

ضحكتُ **ساخرًا:**

ـ بس احنا متفقناش اننا هنتقابل هنا.

ضحكت هي الأخرى وفاجأتني بسرعة **بديهيتها:**

ـ احنا متفقناش نتقابل اصلًا إياس.. احنا جينا في الوقت اللي محدش فيه كان مستني التاني.

نظرتُ لها وبرأسي آلاف الأسئلة التي لا أجد لها ردًا منطقيًا فما يحدث غير منطقي بالمرة، كانت فاتنة كأنها السر وراء قتل هابيل، شعرها المتطاير حولها يجعلني أجلس أمامها منتبهًا كأنني

أشاهد فيلمًا وثائقيًا عن كيف تتحول الفراشات إلى أثر، أهذه هي البنت التي كتب لها درويش وقال إنها «**أثر الفراشة**»؟ أهذه الطفلة تجري بداخلي حافيةً ولا أستطيع منعها! قطعتْ كل ذلك بخفة ظلها **المعتادة:**

ـ سرحان في ايه؟ متصدقش كلام الجواب دي لحظة تهور كده.

ابتسمتُ **ساخرًا:**

ـ ولو مصدقتش اللي كتبتيه.. هكدب عينك اللي بتقول نفس الكلام ازاي؟

فتحت عينيها على آخرها متعجبةً بخفة ظلها **المعتادة:**

ـ للدرجة دي باين عليا!!

رددتُ:

ـ جدًا.. بس حلوة خليها.

كان الحوار يدور بيننا كأننا نعرف بعضنا لسنوات أو ربما لقرون، وكأن حديثها عن أننا تقابلنا قبل ذلك في زمن آخر حقيقيّ، ولكنني لم أستطع تخدير عقلي أكثر من ذلك، كان يروق لي ما يحدث ولكن رؤيتي لما سيحدث حالت بيني وبينه، نظرتُ لها وقد تجمدت ابتسامتي وملامحي **قائلًا:**

ـ بلاش.. بلاش ياجهاد.

تعجبتْ:

ـ بلاش ايه يا اياس؟

أردفتُ بنفس **الجمود:**

ـ اللي يخليكي تكتبي كلام زي ده عني يخليني اقولك إنك عارفة بلاش ايه كويس.. بلاش تقربي وبلاش تبتدي حاجة هتندمي عليها بعدين.

لم ترد، كانت تنظر بهدوءٍ وثقة لم أعهد مثلهما من قبل، فغضبتُ **قائلًا:**

ـ فهميني ايه سر اصرارك إنك تقربي لواحد زيي!.. انتي مجنونة!.. جهاد.. سبيني لوحدي.. انا برتاح وانا لوحدي.

صمتتْ حتى ظننتُ أنها سترحل ولكنها لم تفعل كالعادة، قامتْ وقالت بهدوء وابتسامة **عريضة:**

ـ لو عايز تعرف انا ليه بعمل معاك كده تعالى ورايا.. ومتقلقش.. هنروح مكان انت مبتحبش تروحه.

قالتها ومشت أمامي فتتبعتها وأنا لا أعلم كيف تستطيع هذه المجنونة أن تفعل بي هذا! ولم أعرف هل أغضب من كوني سأذهب إلى مكان لا أحبه أم أتعجب من كونها عرفتْ أنني لا أحبه! ولكنني قررتُ أن أتبعها حتى أفهم لماذا تفعل معي ذلك، وصلنا لسيارتها فأعطتني مفتاح السيارة وهي تضحك **قائلةً:**

ـ انت اللي هتسوق يامنعم.

تظاهرتُ بأنني لم يعجبني مزاحها رغم أنني ضحكتُ بداخلي، لم أنفذ ما قالته حتى وجدتها تقول بنبرةٍ **هادئة:**

ـ مينفعش أسوق وانت موجود.

كانت تنجح تلك الفراشة في فعل كل ما تريده معي ببساطة متناهية! فبرغم أنني علمتُ بعد ذلك أنها من ناشطات حقوق المرأة ومن المؤمنات بمبدأ المساواة إلا أنها كانت تعلم وتعرف أن هناك فرق بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات إلا أنهما متساويين، لكل منهم حق وواجب يختلف عن الآخر ولكن في النهاية لابد أن يتساويا الاثنين في كونهما محل احترام وثقة وتقدير، كانت تفعل ذلك دون أن تقوله، كنت أقود وكانت تدلني على الاتجاهات حتى وصلنا إلى مكانٍ تيقنتُ فور وصولي عنده أنها كانت تعلم حين قالت إنني لا أُحبه، كان ذلك المكان هو المقابر، ولكنها ليست المقابر التي بها أبي وأمى وجدي، نظرتُ لها نظرةً فهمِتها جيدًا وأومأت برأسها أنني فهمتْ، تحركتْ فتحركتُ معها وأنا أشعر بالاختناق كلما مشيت أكثر، كلما زادت الخطوات قل الأكسجين، حتى وقفتْ أمام مقابر وردية! كانت هذه المقابر تختلف عن البقية، جدرانها مطليةُ بطلاء وردي والزهور لا تترك أثرًا لقدم، وقفتْ تتمتم بالدعاء وأنا أُقف صامتًا لا أفعل شيئًا، وبعد صمتٍ دام طويلًا وجدتها تتحدث دون أن تنظر **إليّ:**

ـ بابا فيه كتير منك.. وماما مشوفتهاش بس بابا كان بيقولي إنها أجمل وأحسن ست في الدنيا.. عمره ما قال كانت.. وجايز عشان كده رفض يتجوز بعد ما ماتت لأنه مكنش معترف إنها ماتت.

ثم أكملتْ وهي تنظر **إليّ:**

ـ زيك كده.. مش معترف إنها ماتت.

صعقتُ وهممتُ بالرد ولكنها أردفت **سريعًا:**

ـ متستغربش.. اللي هقوله جايز يبانلك مش حقيقي لكن معنديش غير الحقيقة اقولهالك.. محدش فينا يملك غير الحقيقة.. انا حلمت بمامتك.. كانت مع ماما والاتنين كانوا لابسين ابيض.. وانت كنت قاعد جنبها بتعيط وهي بتطبطب عليك.. حلمت بيك وانت صغير وحلمت بيك وانت كبير.. كل حاجة كانت بتتغير في الحلم إلا عياطك وطبطبتها عليك.. كنت بقوم مفزوعة ومش فاهمة.. ومكدبش عليك كنت بأضايق إن ماما مش شيفاني أصلًا.. لكن الحلم اللي اتكرر كتير إني شوفت مامتك بتندهلي وتشاورلي عليك.. فيلم صح ومش مصدق؟.. مامتك كانت سمرا وعنيها عسلي.. وفي مرة من المرات ماما كانت بتندهلها وتقولها يا جود.. اسمها حلو.. وانت اسمك كمان حلو يا إياس.. حتى سكاتك وحزنك دول حلوين.

لم أستطع الرد ولم تنتظره، كنتُ مذهولًا ومندهشًا مما يحدث، يستحيلُ أن يكون هذا حقيقيًّا أبدًا، ليس من المعقول أبدًا أن ما تقوله جهاد حقيقة، هناك خطأ ما لا يمكنني تداركه، أقف على حافة التصديق متشبثًا بخوفي ولعنتي، محالٌ أن تكون هذه هي الحقيقة، أنا لا أصدقها ولا أريد ذلك، وإذا صدقتُها ماذا سيحدث! هل ستعود أمي؟ هل سأرى جدي ثانيةً؟ هل سيُجبر ذلك الكسرَ الذي بداخلي؟ لا لن يحدث ذلك، وتلك هي الحقيقة الأبدية، وبرغم انتظاري الطويل لمجيء جهاد كان قرار رحيلها أمرٌ لابد من حدوثه، ورغم علمي بأنها لن تقبل بذلك وستحارب وتجاهد لأجلي كان قراري ثابتًا لا يتغير، أرأيت قبل ذلك أحدًا يحارب امرأة تحارب لأجله؟ كما أخبرتك يا عزيزي إنها الكوميديا السوداء، ودعني أخبرك بحقيقة رفضي مكوثها معي، فوصولك لهنا يعني أنك قرأت ما قد سبق، وأنا لست على استعدادٍ مطلقًا بحلول اللعنة عليها، ليست خرافة ولا محض خيالاتي، هذه الحقيقة التي لن أمل من الإذعان والخضوع لها، وأعلم أنك تقول في رأسك إنّ هذا ليس بحقيقي فجدتي لا زالت حيةٌ ترزق بعد.

فور انتهاء الدراسة في يونيو قطعتُ كل وسائل الاتصال التي يمكن لجهاد أن تصل إليّ عبرها، وعندما أتت بعنواني من شئون الجامعة أخبرتُ جدتي أنني لا أريد رؤية أحد، وكعادتها لم تجادلني وتركتني أفعل ما أريد، في أول مرةٍ أتت فيها غادرتْ فور ما أخبرتها جدتي أنني لست بالبيت، ولكن اتضح لي بعد ذلك

أنها أخبرت جدتي أنها زميلتي في الكلية وتريد رؤيتي في شيء خاص بالكلية، ولكن في المرة الثانية لم تقل مثلما قالت في المرة الأولى، قالت لي جدتي بأن هناك فتاةُ جميلة اسمها جهاد وصفت لها بنتها كأنها تعرفها لسنوات، نجحت تلك الجميلة في أسر قلب جدتي كما فعلت بي، لا بأس ببعض الحقيقة ذي الجانب الناعم، نعم أنا غارقٌ في بحورها منذ المرة الأولى التي رأيتها فيها، وأكملتْ جدتي بعبارةٍ صادمة، «**البنت دي شكلها بتحبك يا إياس**»، وبرغم هذه الجملة التي تضيف خاصية الطيران لمن قيلت له، إلا أنني كنتُ أعلم أنني لن أطير أبدًا، لن تطير الأسود ولا القرود، وأنا كليهما أو بينهما، في المرة الثالثة التي أتت فيها جهاد لبيتنا كان الجواب على سؤالك، والتأكيد أيضًا على أن قراري كان صائبًا، فأحيانًا يا عزيزي نفعل ما يضرنا لأجل من نحب بنفسٍ راضية قانعة، كانت زيارتها الثالثة تلك في يومٍ أحبه كثيرًا، أنتم تعلمونه جيدًا، يومُ عيد ميلادي، وأنتم تعلمونَ ماذا يحدث في يوم ميلادي المجيد.



العاشر من أغسطس، في صباح ذلك اليوم كالعادة تُنادي جدتي عليّ بحماسٍ شديد وفي كل مرة لا أفهم لما هذا الحماس منها! هل لها أن تبتسم هكذا في يوم ذكرى وفاة بنتها وزوجها! في كل عامٍ بعد رحيلهما تصحو باكرًا وتجهز لي كعكة البرتقال

التي أحبها، وبرغم تذمري وكرهي لهذا اليوم لم أُرد أبدًا أن ترى ذلك، كنت أبتسم لتبتسم هي الأخرى وبعدها تتمنى لي عامًا سعيدًا، وفي كل مرةٍ أحبس ضحكاتي على أمنيتها، أي سعادة تقصد جدتي، ماذا يعني هذا الشعور! ولكن في هذه المرة تحديدًا لم أستطع **الصمت:**

- كنت عايز أسألك سؤال يا تيتا.

ردت بترحيبها **الدائم:**

- اسأل يا حبيبي.
- ازاى بتعرفي تضحكي وتحتفلي في يوم كل ذكرياته سودة زي اليوم ده!

ابتسمتْ وربتتْ على يدي **وقالت:**

- الحزن مبينتهيش ياحبيبي.. بيقل اه مع الوقت لكن مبينتهيش.. لما جود ماتت حسيت إنها نهاية العالم بالنسبة لي.. حتة من قلبي اتقطعت.. لكن مع الوقت لقيت إن انت وجدك عالم بحاله.. بنضحك وبنفرح وأنا عارفة إنها معانا ووسطنا.. طول الوقت شايفاها فيك.. وطول الوقت بسمعها وهي بتوصيني عليك.. لكن مكدبش عليك يا إياس لما جدك مات كانت نهاية العالم فعلًا.. ويمكن لحد دلوقتي مش قادرة أستوعب إنه مات.

قاطعتها:

ـ بس ازاي يا تيتا انتي كملتي ومحستش إنك زعلانة كل الزعل ده!

أكملتْ بنفس الابتسامة **والهدوء:**

ـ عشان مؤمنة بربنا.. مؤمنة إن ده اختبار لإيماني وصبري.. اختبار صعب بس ربنا بيقويني.. في كل صلاة بدعي بالقوة والصبر.

تحمستْ فجأة **وأكملتْ:**

ـ عارف يا واد يا إياس.. كنت كل ما ادعي ربنا يخليني اشوفك وانا ساجدة.. كأنه بيقولي إنه عوضني عن كل حاجة بيك.. زي ما فيك من مامتك فيك كتير من جدك.. وبعدين إزاي تقول يا واد إن اليوم كله ذكريات وحشة! أمال عيد ميلادك ده يبقى إيه!

ضحكتُ **ساخرًا:**

ـ ده السواد كله يا تيتا.

بدا على ملامحها بعض الضيق، فقلتُ **مسرعًا:**

ـ ربنا يخليكي ليا يا تيتا.

نظرت لي نظرةً أحفظها، وتعني أنها ستتحدث في شيء وستحاول محاولةً بائسة في المكر والدهاء، جميلةٌ هذا السيدة

وبريئة كطفلة لم تتجاوز الخامسة بعد، قالت وهي تعطيني قطعةً أخرى بجانب كوبٍ من الشاي كما **نُحب:**

- هي البنت زميلتك اللي اسمها جهاد دي مبقتش تيجي ليه؟

سكتُ قليلًا لأستوعب ما تقول، وليس هذا فحسب بل لأتوقع فيما تفكر هذه الماكرة الطيبة، فأجبتُ متظاهرًا بعدم **الاكتراث:**

- مش عارف.. جايز زهقِت.. أو جايز فهمِت.. مش عارف الحقيقة.. ومش عايز أعرف.

لم تكن تنظر إليّ جدتي وهذا أخافني، أنا أحفظ تفاصيل وحركات كل من أحبهم، حتى وإن كانوا هم لا يعلمون أنهم لا إراديًا يقومون بفعل حركة معينة عندما يريدون شيئًا معينًا، إنها التفاصيل يا عزيزي، تلك الصناديق اللعينة التي أتفنن في فتحها وحفظ ما فيها، قنابل موقوتة تنفجر في وجه صاحبها، وصدق حدسي حينها، رنّ جرس الباب فقالت على غير **عادتها:**

- قوم افتح الباب يا إياس مش قادرة أقوم.

نعم فعلتها جدتي، نظرتُ لها معاتبًا ولكنها لم تكترث، قمتُ متباطئًا علّ توقعي يخطئ، ولكن توقعي وإحساسي وشعوري بمن أحب لا يخطئ أبدًا، ولكن الوقت قد تأخر، كانت جهاد تقف عند الباب تبتسم وبيدها شيء لا يحتاج لتخمين، وقفتُ أمامها مشتتٌ بين الشعورين المتناقضين، أردت أن أعانقها لشوقي لها

وأردت أن أغلق الباب في وجهها، ولكن ما حدث كان رماديًا إلى أقصى درجة، لم أفعل كليهما، فقط فتحتُ لها الباب وأشرتُ لها بالدخول، كانت جميلة إلى حدٍ أفزعني، استقبلتْها جدتي فور ما دخلتْ كأنها لم تكن منذ قليل لا تستطيع القيام من مجلسها، وأنا واقفٌ بينهما أتظاهر بعدم الفهم والاستياء ولكن لم تكن هذه الحقيقة، الحقيقة أنني كنت سعيدًا بدرجةٍ لم أعرفها من قبل، في هذا الغرفة الثلاثة نساء التي لا أرى أن هناك نساءً غيرهن، اثنين أمامي وثالثةٌ تنظر من إطارٍ على الحائط مبتسمةً كأنها دبَّرت هذه الخطة معهم، قالت جدتي لي **لائمةً:**

- هتسيب ضيفتك واقفة كده كتير!.. مش هتقولها اتفضلي.

ردتْ عليها جهاد بنفس **النظرة:**

- أه والله يا تيتا مش عارفة ايه ده.

نظرتُ لهما **ساخرًا:**

- ضيفتك! وتيتا! اتفضلي.. تيتا عاملة كيكة بالبرتقال طعمها حلو.

جلسنا ثلاثتنا على طاولةٍ واحدة، لم نكن ثلاثة، شعرتُ بأنفاس جدي بجانبي، وأثق تمام الثقة أن أمي تجلس معنا بهذا الإطار، دقائقٍ ورن الجرس مرةً أخرى، نظرتُ لهما وبدا على ملامحي الغضب، فحينما أشعر بعدم الفهم والغباء وأن هناك من سبقني بخطوة أغضب وأثور، فبدا على ملامحهما بعض الخوف، فقلتُ **لجدتي:**

ـ أقوم أفتح برضه عشان رجلك وجعاكي!

ضحكتْ جدتي **قائلةً:**

ـ لا المرة دي فعلًا معرفش مين بره.

فتحولت نظرتنا إلى جهاد التي كانت تبتلع ريقها بصعوبة، **فقالت:**

ـ انتوا بتبصولي كده ليه!.. أنا هعرف منين أنا.

قلتُ متوعدًا **لهما:**

ـ تمام.. هقوم أشوف مين.

فتحتُ الباب فإذ برجلٍ يرتدي ثيابًا وقبعةً لهما لونين فقط وتحت كتفه الأيمن هناك علامة تجارية لإحدى شركات الحلوى الشهيرة، سألني **قائلًا:**

ـ حضرتك أستاذ إياس.

فهززت رأسي مجيبًا أنني هو من يريد، فأعطاني عُلبةً وطاقة وردٍ وقال بابتسامة مبالغٌ **فيها:**

ـ كل سنة وحضرتك طيب يا فندم.

لن أكذب عليكْ، كان لهذه المفاجأة وقع الصدمة عليّ، فدائمًا ما أتطلع إلى سبق الجميع بخطوة، هذه من أعظم أسراري وقوتي، فهذه الخطوة تُمكني من توقع أفعال الآخرين وبالتالي أبدأ في اختيار أي ردود الأفعال أفضل، لذا كان الانبهار شعورًا نادر لا يحدث إلا قليلًا، ولكنه مع هذه الجميلة كان شعورًا سائدًا، كانت

جهاد تختار الطريق المستقيم الذي يؤدي إليّ رغم يقيني بأن طرقي جميعها ملتوية، لا أعلم كيف كانت تمتلك مفاتيح أبوابي فبعضهم لا أمتلك مفاتحه! ربما يكون سر ذلك أنها نصفي الآخر كما يقولون، ولكن لحسن حظها أنني لا أترك الزمام لقلبي ولا تقودني العاطفة، رحيلها عني أفضل بكثير من رحيلها من الحياة كلها.

أخذتُ العُلبة وتوجهتُ إليهم ليصمتا فجأة عن حديثهما الذي حتمًا كان عني، وضعتُ العلبة على الطاولة ونظرتُ إليهما متسائلًا لتظهر علامات المكر عليهما مرةً أخرى، فالمرأة مهما اختلف سنها ماهرةٌ في ذلك، قالت جهاد وبدت على ملامحها **الدهشة:**

- ايه ده! تورتة من لابوار! الله! وايه الورد الجميل ده!!

بينما قالت **جدتي:**

- ايه المفاجأة الحلوة دي؟ مين جاب الحاجات دي يا إياس؟

رفعتُ حاجبيّ وصمتُ لثوانٍ لأقول **لجدتي:**

- مش عارف مين.. بس تفتكري يا تيتا مين عارف إني بحب الورد الأسود وجابه منين.. ولو حتى خمن وطلع تخمينه صح.. عرف منين بقى إني بحب لابوار؟

حاولتْ جدتي المكر مرةً أخرى والتظاهر بعدم الفهم ولكنها لم تفلح، ابتسمتْ وربتت على يدي **وقالت:**

ـ كل سنة وانت طيب ياحبيبي.

ثم نظرتْ إلى جهاد **وأكملتْ:**

ـ جهاد صممت تعملك عيد ميلاد وأنا وافقتها.. بنت حلال أوي يا إياس.

تجمدتْ ملامحي وظللتُ ناظرًا لجدتي وهي تعلمُ ماذا أود القول لها، كنتُ معاتبًا ولائمًا وكانت تقول بأنني مخطئ، حوارٌ طويلٌ بيننا حدث في صمتٍ بينما تنظر لنا جهاد ولا تفهم شيئًا، قمتُ من مجلسي وأنا أنظر لجهاد **قائلًا:**

ـ أنا هدخل أغير هدومي وننزل.. عايز أتكلم معاكي شوية.

أمائت برأسها موافقة فدخلتُ وأنا أعلم ما سأفعله وما سأقوله لها، وبرغم أنني لم أُرد أبدًا فعل هذا لم يكن لدي اختيار، حان وقتُ إخبارها بالحقيقة، تلك الحقيقة التي تلاحقني وستلاحقني ما دمتُ حيًا.

يامن تقرأ الآن.. لا تحزن ولا تغضب.. وإذا كنتَ من محبين الكاذبين الذين يجملون ويغيرون الحقائق فدعِ الورق وشأنه.. وإن كنتَ حقًا مَن كتبتُ له كل ذلك فتحلى بالصَبر وأكمل الطريق.. لم يتبق الكثير.



تيبست قدماي من سكونهما كل هذه المدة دون حراك، ثلاث ساعاتٍ وأنا أقرأ هذا الورق ولا أستطيع تركه، وبرغم كل ما قرأتُ لم أفهم بعد ماذا يريد مني إياس، أشعر بأني أعرفه، أسمع صوته من بين الحروف، أشم رائحته من بين شقوق جدران هذه الغرفة، أحيانًا ما تكون اللامنطقية أول الطرق وأسرعها إلى الحقيقة، والحقيقة الواضحة في كل ما يحدث هنا أنني أعرف إياس تمام المعرفة، وبرغم أن النوم يكاد يقتلني سأكمل، أريد أن أعرف ماذا سيقول إياس لجهاد، أتمنى أن يغلق أذنيه ولا يستمع لذلك الصوت الذي يتحدث بداخله، هو ليس بملعون، إنه القدر، ذلك السهم الذي لا يخطيء أبدًا.

فلنُكمل..



لديّ عادةٌ غريبة؛ لا أستطيع ارتداء ملابسي أو كيّها دون أن تكون هناك موسيقى تدور بصوتٍ منخفض في أخر الغرفة، وفي هذا اليوم تحديدًا لم أكن مهتمًا سوى أن أرتدي ملابسي بسرعة لأخرج لجهاد التي تنتظرني بالخارج، تدور في رأسي جميع الكلمات التي سأقولها لها، سأحكي لها عن كل شيء، ثم أُبلغها بقراري الذي لن أرجع عنه مهما حدث، وبرغم عنادي وتعنتي تمنيتُ أن تمنعني عما أريد، كم تمنيتُ ذلك دون أن أظهره.

ولكن أتعتقدُ أن هذا اليوم المبارك سينتهي هكذا! أتحسبُ أنه سيكتفي فقط برحيل جهاد! لا ياعزيزي أنت مخطئ، فقبل أن أرتدي ملابسي شعرتُ بأنفاسي تتسابق كطيورٍ تفرُ من طلقات عشوائية، الخوف ياعزيزي، الخوف ثم الخوف، في هذه اللحظة كنتُ ألتفتُ ناظرًا إلى الباب ببطيءٍ ورعبٍ ورجاء، لا.. لم يخطئ إحساسي مجددًا، تنادي جهاد بأعلى صوتها لأجري بسرعة نحوها لأجدها تجلس بجوار جدتي وعلى ملامحها رعبٍ لا يختلف عن الذي في وجهي، أما جدتي كانت تُصارع أنفاسها مثلما كنتُ أفعل، كنت أعلم، هذا ليس بجديد، سارعتُ إلى الهاتف وطلبتُ من الطبيب أن يأتي طائرًا إن استطاع، وجهاد تقول بصوتٍ أنهكه **البكاء:**

- إياس.. تيتا بتشاور عليك.

هي تعلم تلك النظرات التي أنظرها لها، كانت تقف بجوار أمي وجوار جدي وبرغم ذلك تتركني وتفعل مثلهم، تبتسمُ لأسامحها وأنا لن أفعل أبدًا، كنتُ أترجاها بعيني ألا ترحل، أترجاها وأبكي على يديها وتقاوم هي دون أدنى فائدة، إنه الرحيل الرحيل، وضعتْ يديها على وجهي وبكتْ، بكتْ لأنها تعلم ما أشعر به، لم تنطق بشيء سوى جملة واحدة، نظرتْ إلى جهاد وقالت بصوتٍ ضعيف **خائف:**

- خلي بالك منه يابنتي.. متسبيهوش.

قالتها ورحلت، كان الطبيب ينتظر أن يُفتح الباب ولكنه لا يدرك أن الباب هذا لم يغلق أبدًا، لا أتذكر ماذا حدث في تلك الليلة سوى بيدي جهاد تحتضنني وتبكي ولا شيء بعد ذلك، علمتُ بعدها أنني قد فقدت وعيي وحدثت لي صدمةٌ نفسية أخذوني على إثرها إلى مستشفى، عرفتُ ذلك بعدما استيقظتُ بيومين، كانت جهاد تجلس بمقربةٍ مني، ابتسمت ما رأتني أفتح عيني، كان من الصعب مواجهة نفسي بأن ما حدث لم يكن حلمًا أو كابوسًا، ما حدث حقيقيًا، وبينما أنا أنازع تصديقي للحقيقة كانت هذه الفتاة طيلة يومين تفعل كل شيء بدلًا عني، أنا أحبها، أحبها جدًا.

كانت تزورني يوميًا وتهتم بي كرضيع ماتت أمه وهي تلده، والغصة التي بقلبي أصبحت لا تحتمل، لولا تلك الفتاة لكان الحزن قتلني بيدٍ باردة، وبرغم امتناني لما فعلتْ معي ولكنني لم أستطع أن أخبرها بشيء، وأعلم أنها لم تكن تنتظر مني ذلك، ولكن الذي لا أعلمه حقًا من أين أتت بكل هذا الحب؟ وإذا كانت الإجابة أنها مكافأةٌ وتعويضٌ من الله فلماذا يسير الأمر بهذه الطريقة! لماذا يؤخذ مني مادام سيُرد إليّ! وكيف أحب جهاد وأنا أعلم أن محبتي لها تذكرة مجانية للموت، في تلك الفترة كانت أقصى أحلامي أن أنام بضع ساعاتٍ دون أن أستيقظ فزعًا خائفًا ألتقط أنفاسي بصعوبة كأنني كنت أجري ليومين دون توقف، أتذكر حينها أنني تعرفتْ على أقوى وأعز أصدقائي، "كلوزابكس"، قالها الصيدلي وهو يتلفت حوله، كان هذا المنوم

هو آخر الحلول عنده، أعطاني كل المنومات والمهدئات ولكن دون جدوى، شدد عليّ بعدم إخبار أحد لأنه يُدرج تحت أنواع المخدرات ولا يُصرف إلا بأمر طبيب، وأعتقد أنه عرض نفسه للخطر وأعطاه لي لمعرفته لي منذ زمن، إنه ابن المُعلمة الذي أخبرتكم عنه من قبل، يبدو أنه كان يصلح ما أفسدته والدته، أو يريد برهان أنها كانت على حق، لا يهم، المهم حقًا أن هذا المنوم قد حال بيني وبين الحقيقة، كنت أنام طيلة اليوم وأستيقظ لأريد النوم مجددًا، لم أخبر جهاد بهذا لأني أعلم أنها لم تكن لتوافق أبدًا، هذا المنوم يُتلف الأعصاب مع كثرة استخدامه، كنت أشعر بذلك حينما أستيقظ من النوم، لا أستطيع الوقوف ولا التركيز، أتحكم بعقلي ولا أتذكر ما لا أريد تذكره، ولكن هذه الراحة لم تدُم طويلًا، علمتْ جهاد بأمر ذلك المنوم حينما أخبرني الصيدلي أن الشركة المصنعة للمنوم أوقفتْ تصنيعه، كان لذلك الخبر وقع الصدمة عليّ كأنني فقدت كل ما فقدته مجددًا، أعطاني بدائل له ولكنها كانت ضعيفة لا يقوون على عقلي، علمتْ جهاد بأمره حينما رأتني مستيقظًا ليومين كاملين، لم أخبرها في البداية ولكن أخبرتها لأمهد لها ما أجلته منذ فترة، كانت هذه المرة الأولى التي أراها فيها غاضبة ولا تريد النظر في وجهي، بكتْ وظلت صامتة، لم تقل سوى أن ما فعلته ما هو إلا انتحار ببطء، أخبرتني أن هذه خيانة لها، ما الترك والرحيل إلا خيانة عظمى، لم أستطع إخبارها أن هذا خطأ فأنا أرى كل من تركوني خائنين، كانت تنتظر مني أن أعدها أن لا أفعل ذلك مجددًا، أنا أعرفها، لم تكن تنتظر اعتذارًا

أو حتى تبريرًا لما فعلت، كانت ستكتفي بأن أقول لها سأبقى حيًا لأجلكِ، سأبقى معكِ دون شيء، ولكني لم أفعل ذلك، كنتُ أشعر أن هذا هو الوقت الذي لابد أن يحدث فيه ذلك، أنا لا أستحق كل هذا العطاء، وهي لا تستحق الموت أبدًا، هي تستحق دائمًا أن تحظى بكل ما يجعل الإنسان سعيدًا ومحبًا للحياة، هي لا تستحق أن تتعلق حياتها ببائسٍ يائسٍ ملعون مثلي، هي لا تستحق ذلك.

بعد دقائق صمتٍ، أو ساعاتٍ لا أعلم، لم تنطق بشيء بينما أنا أستعد لإطلاق رصاصة الرحمة عليها، وبرغم سوء ذاكرتي حينها إلا أنني أتذكر ما دار بيننا، وكيف لا أتذكره وأنا أراه كل دقيقة.

- أنا عارف إنك تعبتي معايا.. وإنك وقفتي جنبي كتير.. وإن عمري ما عبرتلك ولو جزء بسيط عن كل اللي عملتيه.. جايز عشان كنت بحس إن الكلام اللي هقوله مش هيعبر عن حاجة وهيكون قليل.. لكن الأكيد إني دايمًا بحس إني مستحقش كل ده.. ولا جزء منه حتى.

همتْ أن تقاطعني ولكنني أردفت **قائلًا:**

- مش عايز أسمع اللي هتقوليه لأني عارفه.. لكنه مش صح ومينفعش يكون صح.. جهاد انتي لازم تمشي حالًا.. تمشي ومترجعيش تاني.. وصدقيني ده عشانك.. لازم تمشي بمزاجك.. قبل ما يجي الوقت وتمشي غصب عنك.

كانت ملامحها جامدة ولم تُصدم عكس ما توقعتْ، ظلت صامتة ولا تنظر إليّ، ثم رفعت رأسها وأخذت تمسح دموعها وهي تقول بحدةٍ **بالغة:**

ـ خلصت؟ لو فاكر ان كلامك حقيقي أو حتى هصدقه وأخاف وأمشي تبقى غلطان.. انت ليه مش قادر تفهم إن الموت ده حاجة ثابتة ولازم تحصل؟ ومين قالك إني لو سيبتك مش هموت؟

ـ جهاد.. محدش بيموت لما بيسيب حد.

ردت **بسخرية:**

ـ لا واضح!

ـ عامل ازاي يعني؟ تعبت شوية وزعلت؟ عادي.. هبقى كويس.. وانتي كمان يومين وهتبقى كويسة.. وبعدين أنا عارف أد ايه انتي كنتي متعلقة ببباكي.. والحياة مشيتْ.. وانتي كمان لازم تمشي.

قامتْ وبكتْ للمرة الأولى التي أراها تبكي بهذا الشكل، وقالت وهي تتجه ناحية **الباب:**

ـ ماشي يا إياس أنا همشي.. بس عشان أثبتلك حاجة واحدة.. مش شرط تحبني أو أعيش معاك عشان أموت.. وطالما إنت شايف إنك كده بتحميني يبقى إحميني للآخر لو عرفت.. وأنا مش فاهمة هو عايز مني إيه تاني بس خلاص.. يا معاك يا لأ.

لم أفهمها، ولم أعي نبرة التحدي التي كانت بصوتها، لم تكن تتحدث إليّ، ولكني فطنتُ للحقيقة بعد وقتٍ قصير من رحيلها، والبقاء مستيقظًا لفترة طويلة يجعل من الأشياء أكثر وضوحًا، حاولتُ البحث عن أشياءٍ تستنفد طاقتي وترديني نائمًا، بدأت بإغماض عيني ورسم كل ما أراه، وحين أفتحها لا أجد سوى خطوط متقاطعة غير مفهومة، كتبتُ على الجدران وعلى الأوراق وعلى جسدي، ولكني أردتُ توثيق وكتابة كل ما حدث لأني أعلم أنك تبحث عني، وأعرف أنك ستصل إليّ، وإذا كنتَ تقرأ الآن فهذا يعني أن ما كان مؤجلًا منذ ولادتي قد آن آوان حدوثه، هؤلاء الضحايا الذين رحلوا بسببي لم يتبق منهم أحد، إنه دوري ولن أسمح بأن يفديني آخرٌ بحياته، هي النهاية يا عزيزي، ولكن نهايتي أنا، ها قد جاء دورك، إبحث عن ضالتك في هذه الغرفة ولكن قبل البحث عليك أن تُدرك بأن الرجوع عن الطريق لم يعد اختيارًا، أنت تسير عكس التيار ولكن اعلم بأن نهاية الطريق تكون عند مصدر الرياح، لا تكن مثلهم وتسلك الطرق الطويلة المملة، لم يتبق لك الكثير، في هذه الغرفة كانت البداية، لا تخرج منها قبل أن تنتهي.

إياس



الوقت يمضي، لا أعلم كم لبثتُ في هذه الغرفة ولكن يبدو أنني هنا منذ وقتٍ طويل، أناملي وقدماي متيبسان ويرفضان الخضوع لأوامري، وتفر دموعٌ من عيني لا أعلم سببها، ولا أعتقد بأن ما قرأته هو السبب، هناك خطأٌ ما قد حدث لا أدري مصدره، يقول إياس أنني أعرفه وكنت أبحث عنه وهذا غير صحيح، أنا هنا لرسالةٍ أتتني على هاتفي يخبرني فيها أن آتي لهذا العنوان وفور ما وصلت وجدتُ باب الشقة غير موصد كما يحدث في الأفلام التي مللتُ من مشاهدتها، ولكن طبقًا لقانون تلك الأفلام كنت سأجد إياس معلقًا بمروحة السقف المزعجة هذه، وكنت سأفعل كما يفعل البطل في هذه الأفلام وأبدأ البحث عن كل خيوط القضية، ولكني لست البطل، ولا أعتقد أيضًا أن إياس ضحية، هناك خطأٌ ما قد حدث، هنالك أوراقٌ أخرى لابد لها أن تصلني للطريق الذي عليّ سلكه حتى نهايته، بدأتُ في البحث مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم تكن كسابقها، أنا مُتعب، مُتعب جدًا، النوم يقتلني ولا أستطيع الحراك، سأنام قليلًا، أعتقد أننا في منتصف النهار، سأستيقظ عما قريب..



«هي جميلة.. ولا جميل غيرها»

«لا تتركني يا إياس.. لا تتركني»

«صفقوا أيها الأصدقاء لقد انتهت الكوميديا»

«لن ينتهي البؤس أبدًا.. الحزن سيدوم للأبد»

«لقد أسأت للرب وللبشرية.. أعمالي لم تكن بالجودة الكافية»

«لقد مللت من كل شيء»

«هل أنا أحتضر.. أم هذا الميلاد؟»

«لأنني لم أستطع النوم»

«لكنني لستُ خائفًا»

«أنا ههرب»

«لدي إحساسٌ عميقُ بأنني لست حقيقة.. أنا زيفٌ مفتعل»

«انتحاري هو الشيء الحقيقي في حياتي»

«لم يحبنا العالم.. ولم نحبه يا أمي»



أستيقظتُ فزِعًا، إلى متى سأظل أرى هذه الرسائل وأحلم بها، ماذا يريدون مني، يبدو أن هدى كانت على حق، تخطي أثر المنتحرين لن يمر مرور الكرام، هؤلاء جميعهم قد انتحروا وتركوا هذه الرسائل، وأنا أؤمن أن المنتحر قويٌ جدًا على غير قول العامة، من استطاع أن يأخذ قرار إعدامه بنفسه هو أقوى شخص على الإطلاق، والسبب الذي يدفعه لقرارٍ كهذا أعتقد بأنه لا يحتمل، ولكن ماذا أتى بإياس وجهاد ضمن هذه الرسائل، أنا لا أعلم هل كانا انتحرا أم لا! الليل على وشك القدوم، لابد أن أبحث

عن باقي الورق، صوت المروحة المزعج هذا يكاد يفتق برأسي، لماذا تُركت تعمل كل هذا الوقت! سأطفئها أولًا، بحثتُ عن الزر الخاص بها وأغلقتها بالفعل، ولكن ما حدث كان غير متوقع بالمرة، لم يكن الصوت المزعج الصادر منها بسبب عطلٍ فيها أوً قِدَم، ففور ما سكنتْ وقع ورقٌ كان موضعٌ بها بشكلٍ غريب حتى لا يسقط أثناء الحركة ويسقط فقط عند السكون وهو من كان يتسبب في ذلك الصوت، ولكن لم تكن هذه المفاجأة وحدها بل ما كان مكتوب على الصفحة الأولى أشد تعجبًا، "جهاد: تتوسط الصفحة الأولى البيضاء كما كانت كلمة إياس مكتوبةً على ورقه، يبدو أنها ليلةٌ طويلة، أحتاج لبعض الكافيين لمزيدٍ من التركيز، إنه الليل والشتاء القارس، وإذا اجتمعا هذان الاثنان لابد لثالثٍ لتكتمل اللوحة؛ النيل، والمسافة بين وسط القاهرة والنيل ليست ببعيدة، دقائقٌ ووصلتْ، طلبتُ القهوة التي أُفضلها وتأهبتُ للقراءة متحمسًا كما أفعل في كل مرة..

جهاد



أجواء نيويورك باردة كقلوب ساكنيها، البشر هنا يُشعرونك أنهم هم الوحيدون الذين يعرفون كيف بدأ الخلق ولماذا، تمتلكهم العنصرية لأبعد حدٍ رغم تظاهرهم بعكس ذلك، وبرغم أنني أمتلك مثل جنسيتهم بالتالي فأنا بالتصنيف الأول من البشر؛ لم أشعر يومًا أنني واحدةً منهم، دائمًا ما أحن للأيام التي قضيتها بموطني الحقيقي، كان أبي يصطحبني معه لصلة الرحم كما كان يقول، ولكنه انتهى عن ذلك حينما توفت جدتي، لطالما طلبتُ منه أن نرحل من هنا ونعيش بمصر ولكنه كان يرفض بشدة، تارةً يخبرني أن القاطنون بمصر يتمنون فرصةً واحدة للخروج منها، وتارةً يخبرني أن جدتي توفت فما الدافع من وراء تلك الخطوة

التي لا يُرجى منها أي فائدة، أخبرته أنني أُحب خالتي كثيرًا ولكنه كان يجيبُ بإجابة واحدة، ما دمنا سويًا أنا وأنتِ هذا يكفي، لم أُرِد أن أسأله ماذا سأفعل إن رحل هو الآخر لأنني كنتُ أعتقد أن هذه الفكرة غير مطروحة ولن تحدث، لن يرحل ويتركني، وأنا أعلم السبب الحقيقي وراء تعنته في العودة لمصر، أبي وأمي قصة حبٍ تُحسب من الأساطير والحكايا الخرافية، كانا يحبان بعضهما حد الموت ويبدو أنهما كانا صادقين فماتت أمي من شدة الصدق، رحلتْ بعد ولادتي بدقائق، كان لوفاتها أثرٌ كبيرٌ وموجعٌ لأبي، لم أرى أحدًا يحبُ مثلما رأيت أبي وسمعتُ عن أمي، ولدتُ بأمريكا وقد كانا قررا بأنهما سيعيشان بمصر لإرادتهما أن يُربيا مولودهما في موطنه، وبرغم أنهما تقابلا بمحض صدفة إلا أن صدفتهم هذه بَنتْ بداخلي قرونًا من العشق الأبدي، قرر أبي بعد موتها أن يظل هنا بأمريكا حتى لا يتسنى له ترك كل متعلقاتهم وذكرياتهم، ليس أبي بالشخص الذي يستطيع الهرب، ليس مثلي، أسماني جهاد كما سُميت أمي.

أنا جهاد، مصرية تقيمُ بأمريكا، متمردة وعنيدة كما يقول هشام؛ والدي الذي يعمل أستاذًا بالجامعة، وأوافقه الرأي تمامًا فأنا في خلافٍ دائم مع الثقافات الغربية والشرقية أيضًا، لا أرى فائدة من تعارضهمٍ، لا أرى فائدة للحجاب رغم كوني مسلمة، لا أرى فائدةً لأشياءٍ كثيرة حُرِّمت بدافع الحرمان فقط، لماذا من سيحرم نفسه أكثر تكون جائزته أكثر؟ لماذا كل هذا التعقيد؟

وكثيرًا ما كانت تلك الآراء سبب عراكٍ كبير بيني وبين أبي، فلم تستطع تلك السنوات التي قضاها أبي هنا أن تُنسيه ما تربى عليه، لم تستطع تلك المغريات أن تُثنيه عن عقائده ومبادئه، ولكن شيئًا واحدًا ما كان يُنهي حدة الحوار بيننا أننا ببلدٍ حر، الآراء ووجهات النظر المختلفة حقٌّ مكفول للجميع.

أُصلي، ليس يوميًا ولكن أُصلي، أصومُ حين أستطيع الصوم، أفعل ما يحلو لي ولا أنتبه لتحذيرات أبي التي لا تنتهي، ولكن ثمة شيء اتفقنا عليه دون نقاشٍ من الأصل وهو أنني لا زلتُ متمسكةً بعذريتي، وبرغم عدم اقتناعي الكامل ولكن لأجل أبي، هو لا يعلم كم أحبه، هو أبي وصديقي، فأنا ليس لدي أصدقاء ولا أريد، فقوتي دائمًا ما تهمس في أذني بأن لا أحد سيبقى، لا أحد سيمضي معنا طريقنا في اعوجاجه قبل استقامته، لا أحد سيحب عيوبنا، يجوز أن هناك من سيتقبلنا كما نحن ولكن محبة العيوب أمرُ نادر الحدوث، لذا وجدتُ في تهميش العلاقات وبناء الأسوار الحل الأمثل للبقاء، أما الحل الأمثل لتفادي المشكلات هو الحفاظ على ماهيتي كمسلمة والبقاء صامدة حتى النهاية.

لم أرَ أمي إلا بعيون أبي، يحكي لي عنها وهو يبتسم كأنه يستمد طاقته منها، كان يتعجب مني لكوني غير متحمسة أن أسمع عنها أو أحدق كثيرًا في صورها كما كان يفعل، ولم أُرد إخباره، فأنا لم أسامحها، لقد تركتنا، تركتنا وذهبتْ ولم تكترث لأمرنا، ولستُ أنانية فأنا لا أتحدث عن نفسي فقط، لم تكن رؤية أبي

من دونها سهلة أبدًا، مهما أخفى، مهما حاول ألا يشعرني بذلك، ولكنها الحقيقة، لقد رحل أبي معها، كان عليها أن تعلم أن رحيلها سيقضي على كل الورود والأزهار التي تنتظر المطر ببيتنا، كان عليها أن تقوى أكثر من ذلك، لم أسامحها أبدًا.

سألتُ أبي ذات مرةٍ ما معنى الأحلام التي نحلم بها وما سببها، أخبرني أن نتاج ما خبأه العقل الباطن طيلة فترة استيقاظنا، في النوم فرصة كبيرة ليقول العقل ما كتمه وأن يفصح القلب عن نيّاته المبيتة، أو ربما غير ذلك، لم أفهم فأكمل قائلًا بأن هناك أحلامًا ورؤىً تكون على هيئة رسائل، قال ذلك ولم يع سبب سؤالي، لم يكن يعلم أنني سألت هذا السؤال تحديدًا لَتحديد الخلل والمشكلة ومن ثم أصلحها، لمَ لا أرى أمي؟ لماذا لم تعبر إحدى حواجز الحقيقة بسجادة هوائية مثلًا! بأفلام الكارتون التي أشاهدها أساليبٌ عديدة لم لا تستخدمها! هل ربما تأتي لأبي كل يوم فلا وقت لديها؟ هل المشكلة في عقلي أنا؟ ولكن كيف ذلك فعقلي الباطن متفرغٌ من كل شيء حتى يفعل هذه المهمة وحدها؟ والإجابة على هذه الأسئلة واحدة، هي لا تريد المجيء، وبعد فترةٍ من الزمن سئمت الانتظار وأعطيت لعقلي الباطن مهامًا أخرى، ولكن كان هذا قرارًا خاطئًا، فوقتها بدأتُ في التفكير في كل ما يحدث حولي، لمَ كل هذه الصراعات لمجرد عتناق واقتناع أحد بدين آخر، بدأتُ في الأسئلة عن كل شيء وتحمس أبي في البداية ولكن حين لاحظ عدم اقتناعي فقد حماسه، وعندما بلغتُ وبرزت

أنوثتي بدأ إقناعي بالحجاب، لم أقتنع، ولكنه لم يفقد حماسه، ولم يأمرني أيضًا لأنه يعلم أنني حين أمتثل لأمره سيزيدني بغضًا ونقمًا، فتركني قائلًا ستقتنعين وحدكِ فيما بعد، كنتُ أسمعه يدعو الله لي أن يهديني، كنتُ أستشيط غضبًا فأنا لستُ بسيئة، أنا أنظر للقلوب، تهمني وأهتم بها، لم أسأل يومًا عن ديانة أحد، ما تعنيني فقط هي إنسانيته، أن تكون إنسانًا في هذا العالم الجائع الطامع هو أمرٌ نادر الحدوث، لذا كان هذا هو شغفي في الحياة، ودفعني هذا لهواية التصوير وحُبها، أردت اقتطاف اللحظات الإنسانية ونشرها لأعيد بناء القلوب من جديد وإرجاعها لفطرتها، وساعدني وجود وسائل التواصل الاجتماعي أن أفعل ذلك بسهولة، أصبح لدي الآفٌ من المتابعين ينتظرون بشغفٍ ما أبثه لهم، لم تكن حياتي وردية كما كان يظن البعض ولا سوداء كما يظن البعض الآخر؛ كنتُ بينهما، وبرغم عدم إيماني بوجود منتصف للأشياء فهذه الميزة قد تُعطي منحةً للعدل وأنا أعتقد أن الحياة لم ولن تكن عادلةً أبدًا، أتظاهر بالقوة حتى يتسنى لي تصديقي، أستيقظ يوميًا آملةً في إنتهاء اليوم قبل أن يبدأ، طاقةٌ منتهية وعقلٌ متعبٌ وقلبٌ فارغ، هذا أنا، ولكن ربما لم يستمر هذا الحال كثيرًا، فهناك ثلاثة أحداثٍ وأيام غيرتْ كل شيء، ثلاث تواريخ لهما التأثير الأكبر في حياتيٍ، الأول من ديسمبر وأنا في العشرين من عمري، والآخر من فبراير بعد الحدث الأول بثلاثة شهور، والأخيرة كانت في العاشر من أغسطس بعد الحدث الثاني بنصف عام، عامًا واحدًا كان كافيًا

لتتبدل فيه الأقدار، أنا أؤمن بأنه لولا هذه الأحداث لكنتُ لا زلتُ إلى الآن بنيويورك أُكمل رسالتي التي عاهدت أن أزرعها في قلوب البشر مرةً أخرى، وبدأ كل شيءٍ عند سؤالي لأبي لماذا يقولون بأن المنتحر كافرٌ، في بداية إجابته تعمد النظر في عيني وتعمدتُ إخباءها، لا ينبغي على أبٍ أن يرى الحزن في عين ابنته عندما تتحول نتائج الحلول إلى الصفر العادل، لم أُرد له أبدًا أن يشعر بالعجز ولا يستطيع فعل شيء لي، لم أكن أريد الحياة ولا أعتقد أنها تريدني، ولكن الغريب كان خوفي من صدق قولهم بأن المنتحر كافر رغم عدم امتثالي الكامل لكل ما يجعلني مسلمة، الخوف، الخوف ثم الخوف، وجاءت إجابة أبي غير متوقعةٍ على الإطلاق، أخبرني بأن المنتحر غير كافر، وما تعجبتُ منه حينها ولم أفهمه أنه أخبرني بأن الانتحار ليس بكفرٍ في حين أنه إن كان نظر في عيني سيفهم كل شيء، ولكني فطنتُ للدرس بعد ذلك، كان يريد قول بأنه يعلم ما أريد فعله ورغم ذلك لم يغير الحقائق، ثقته في عقلي تلك قد تسببت في زرع مسافة كبيرة بيننا بعدما بوَّرتها ألسنة حرب الجدال وبرهنة وجهات النظر، حتى أتى اليوم الأول..



الأول من ديسمبر، البرد القارس والشوارع المزينة بالثلج، كل شيء هنا يستعد للتجمد؛ الشجر، الشوارع، البيوت، حتى

أعمدة الإنارة، ولكن في ذلك اليوم لم يغطِ الثلج الجماد فقط بل استعمر قلب ثلاثةٍ من أشباه الرجال، العربُ هنا مِن بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر في نظر الأمريكين هم الممسكون بأزرة الموت والمستعدون في أي لحظة للضغط عليها بسهولة وإمتنان، وأنالم أعتد أبدًا على الحياد ولا أحب المنتصف، كان عليّ أن أختار لأي الطائفتين سأنضم، وغلبَ موطني هويتي، رأيتُ مثل باقي المواطنين الأمريكين أن الذي فعله هذا شخصٌ ينبئ عن عقيدة ويقين دين كامل وهو أنه إن كنت على غير ديني فسأقتلك، هذا ما زرعوه بداخلنا في المدرسة وفي التلفاز وفي كل مكانٍ يصل مباشرةٍ إلى عقل الطفل ويؤثر عليه، وحدث ما أرادوه، ولكنهم لم يخبروني ولا لمرةٍ واحدة أنهم مثل سائر البشر، يخطئون ويؤذون، ليسوا صفوة الخلق بل الكل سواء وما يفعله المرء يعود عليه هو فقط، فذاك الذي قال بأن السيئة تعم الجميع هو أسوأ البشر على الإطلاق وأظلمهم وأجهلهم.

في الأول من ديسمبر بداية اكتشاف الحقيقة المزرية، يقولون بأني جميلة، يقولها أبي كل يوم في الصباح، وأراها في عيون المارة بين حين وآخر، ولكن في هذا اليوم قيلت بطريقة أنستنى طيب ذكراها في ذهني، كنا قد أوشكنا على منتصف الليل، الشوارع حزينة وفارغة، كنتُ عائدةً من تصوير حدثٍ مهم، وإذ بصوت خافتٍ يأتي من خلفي ويقول بأني جميلة، ثم قالها مرةً أخرى ولكن بدا كأنه يتحدث إلى شخص آخر ويقول له انظر

لها كم جميلة، ثم ضحكا بصوتٍ عالٍ وأسرعا في خطواتهما فأسرعتُ أنا الأخرى في خطوتي ولازالا يصفان لبعضهما كل ذرةٍ في جسدي بصوتٍ جهورٍ كأنهما يتفاخران بصيدٍ ثمين، حاولت الجري ولكنهما لحقا بي، حاولتُ الصراخ ولكنهما ضربانِي على رأسي ففقدت وعيي، تمر الدقائق والثواني كأنها قرون، شعرتُ بأن أحدهما ينتزع ملابسي والآخر يغلق فمي خشية أن أفيق في أي لحظة وأصرخ، وحين صرختُ وضع قماشة في فمي ناظرًا في عيني لأخاف وأصمت ولكنه لم يدرِ أنه كان خائفًا أكثر مني، تناوبا في اغتصابي حتى شعرتُ بموت كل ما زرعته بداخلي، شعرت حينها أنني أصبحت صحراء جرداء لا خير يُرجى منها ولا غيثٌ يُنتظر، أنهيا شغفهما في انتهاك الجسد الذي آثار غريزتهما وهربا، اللعنة على جسدٍ يستحل قتلَ جسدٍ آخر، اللعنة على من تحركهم غرائزهم، اللعنة على شهوةٍ تملكت العقول والقلوب، اللعنة على من قالوا بأنهم ليسوا ببشرٍ ولا يخطئون، لقد اُغتصبتُ من قبل شابين أمريكيين في البلاد الحرة الديموقراطية، أتذكر أن ذلك اليوم كان أتعس يوم قد مر على بيتنا حتى يجوز أنه كان أسوأ من وفاة أمي، فتح أبي الباب لي ليجدني واقفةً أمامه ملابسي ممزقة وعلى وجهي آثار ضرب، لا أريد تذكر نظرته ولا حزنه، ثلاثة شهور من أقسى العذاب النفسي والجسدي، ذهبنا إلى الشرطة وتقدمنا ببلاغ ضدهما وأعطيتُ للشرطة ملامحهما التي لم أتذكرها جيدًا، وبالفعل وصلوا إليهما، كان أبي يذهب

يوميًا ليعرف آخر التطورات ولا يعود إلا لينام ثم يعاود الكَرَةَ مرةً أخرى، لم يكن يتحدث كثيرًا.. لم يكن يتحدث من الأصل، وبعد ثلاثة شهور حُكم عليهما بمثل ما حكماه عليّ، حُكم عليهما بالموت، وللموت أشكال كثيرة أهونها ما حُكم عليهما وأقواها ما فعلاه بي، في ذلك اليوم عاد أبي للبيت معي ولم يخرج ثانيةً كما كان يفعل، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يبتسم فيها بعد الحادثة، قبل أن يصعد إلى غرفته قبَّل رأسي في هدوء ولم ينطق بكلمة، وكأنه أراد قول كل شيء في هذه القُبلة، سمعتُ قبل ذلك عن قُبلة الوداع ولكن كانت هذه هي المرة الأول التي أراها فيها وأراه، إنه اليومُ الثاني..

التاسع والعشرون من فبراير، يومٌ لعينٌ لا يأتي إلا كل أربع سنواتٍ، لذلك سُميت السنة التي بها هذا اليوم بالسنة الكبيسة، وصدقَ من سماها بذلك، لقد قرر أبي في ذلك اليوم أن ينهي عقده مع الحياة التي ظننتُ أنه ممتد لآخر العمر، ويبدو أن العقد قد انتهى بالتراضي فأنا لم أرَ والدي يناضل أو ينازع كما اعتدت عليه، وكأنه من طلب ذلك، صعد إلى غرفته لينام ولم يخرج منها في آخر اليوم فصعدتُ لأطمئن عليه، كان مسالمًا هادئًا يرتدي ملابسًا أخبرني قبل ذلك أن والدتي أهديته إياها في عيد زواجهما الأول، لم يفتح عينيه حين دخلت الغرفة على غير عادته فهو يستيقظ إذا

عطس أحدٌ في غرفة أخرى، فمن الخطوة الأولى في غرفته شعرتُ ببرودة جسده تسير في عروقي، قدماي ثقيلتان لا تستطيعان التقدم لخطوةٍ أخرى، لا لم يفعل أبي ذلك ولن يفعل، لم يتركني ويرحل، إنه متعب كثيرًا ولكنه سيستيقظ الآن، ألا تسمعني يا أبي؟ أعلم أنك مرهق وتحتاج للراحة لذا سأتركك وأعود بعد قليل، لا لن أتركه فربما يستيقظ في أي لحظة ويحتاجني، سأنام بجانبه كما كنتُ أفعل حين أخاف وحين تراودني كوابيس مفزعة، أمسكت بيده المثلجة وغطتُ في نوم عميق، تراودني كوابيسٌ مفزعة وأتحملها ولا أريد أن أستيقظ، فاًلكابوس الأصعب سأراه حينما أفتح عيني ولا مفر منه، ولكن هناك أوقاتًا تكون المواجهة فيها أوهن من الهروب منها، كان عليّ المواجهة فالهروب من قدر محتوم ما هو إلا عذابٌ أليم، فتحتُ عيني وبدأتُ في استيعاب الأمر تدريجيًا، وكانت هذه المرة الأولى التي أشعر فيها بالوحدة الحقيقية، أنا لا أقوى على فعل شيء ولكن لن يفعله غيري، اتصلتُ بمسلمين يسكنون بنفس المقاطعة التي نسكن بها وكان لأبي تواصل دائم معهم، جاءوا مسرعين وساعدوني في إيصاله إلى سكناه الأخير كما كان يتمنى.. بجوار أمي، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها كيف تكون حلقة الوصل بين الحياة والموت، الجسر الذي يعبر به الإنسان ليصل إلى مستقره الأخير، مراحل التغسيل والتكفين والدفن كنت أشاهدها أمام عيني ولا أستوعبها، أهذا أبي؟ لا بل يشبهه فقط، ورأيت لموته أسبابًا كثيرة أهمها ما حدث

لي، وموت الجناة الحقيقيون لا يكفي، لابد من قيام ثورة على هذا المجتمع الذي يضع نفسه في مصاف الأمم وهو على النقيض تمامًا، كتبتُ مقالةً ونشرتها على صفحتي الخاصة وفوجئت بردود الأفعال المتباينة، هجومٌ شرس من المتعصبين لعرقهم وهويتهم وتأييد كامل ممن يوافقونني ويدافعون عن الإنسان فقط، وخاصةً أنني استشهدت بما حدث لريحانة جباري الفتاة الإيرانية المناضلة، والتي اغتصبها شرطيٌ فقتلته، ولأن الفساد سارٍ في جميع أعضاء جسد العالم حُكم على هذه المسكينة بالإعدام لقتلها ذاك الخنزير، لا بأس.. هذا ما جاء في **الخطاب:**

«لم يُحبنا العالم.. ولم نُحبه يا أمي..»

قالتها الوردة التي نبتت في حقول الصبار قبل أن ترتقي روحها إلى مكانها الحقيقي.. البستان.

ريحانة جباري، الفتاة الإيرانية التي حُكم عليها بالإعدام لأنها قتلتْ من حاول أخذ رحيقها عنوةً وغصبًا، لم يفهم ذلك الشرطيْ أن الغراب ليس بجندٍ من النحل ولا ينتمي لحزب الفراشات، الغُراب غرابٌ مهما تغيرت الأزمنة، وقالت أيضًا في رسالتها الأخيرة التي بعثتها لأمها قائلةً **فيها:** «**حين وقعت الواقعة يا أمي لم تحالفني مبادئي ولا ما علمتيني إياه، وحين قُدمت إلى المحاكمة بدوتُ امرآةً تقتل بدمٍ بارد مجرمةً لا تلين لا تملك ذرة من الرحمة، لم تسقط مني دمعةٌ واحدة، لم أتوسل إلى أحد، لم يغمرني البكاء، لأني وثقت في القانون، لكني اتهمت بالامبالاة**

أمام الجريمة، أترين؟ لم أكن أقتل حتى الحشرات، أصبحت في لحظة قاتلة مع سبق الإصرار، لقد فسروا معاملتي للحيوانات على أنه نزوع لأنه أصبح ذكرًا، ولم يكبد القاضي عناء النظر إلى أني كنت أملك حينها أظافر طويلة ومصقولة، كم كان متفائلًا من ينتظر العدالة من القضاة، لم يلتفت القاضي إلى نعومة يدي بشكل لا يليق بامرأة رياضية أو ملاكمة بالتحديد.

البلد التي زرعت في حبها لم تكن تبادلني الحب، ولم يساعدني أحدٌ وأنا تحت ضربات المحقق وأسمع أحط درجات السباب، وحين تخلصت من باقي علامة الجمال الباقية في جسدي أعطوني مكافئة ١١ يومًا في الحبس الانفرادي.

عزيزتي، لا تبكي على ما تسمعيه مني الآن، في أول يوم لي في مركز الشرطة أذاني ضابط كبير السن وليس متزوجًا بسبب أظافري، عرفت يومها أن الجمال ليس من سمات هذا العصر، جمال المظهر، الأفكار والرغبات، جمال الخط، جمال العين والرؤية ولا حتى جمال الصوت الجميل، أمي العزيزة، تغيرت فلسفتي وأنتِ ليست المسئولة عن هذا، وهي ليست من مسؤوليتك، لن تنتهي كلماتي فقد أعطيتها لشخص تعهد بأن يرسلها إليك بعد أن يتم إعدامي دون حضورك أو علمي، لقد تركت لكِ الكثير من الكتابات ميراثًا، لكن وقبل أن أموت أريد أن أطلب منك أمرًا يجب عليك تلبيته بكل ما تستطيعين من قوةٍ وبأي طريقة، هذا الأمر الوحيد الذي أريده من العالم ومن هذا

البلد ومنكِ، أعلم أنك تحتاجين وقتًا لإعداده لذا أخبرك جزءًا من وصيتي قبل الموت، لا تبكي واسمعيني جيدًا، أريد منك بأن تذهبي للمحكمة وتعلني رغبتي، لا يمكنني كتابة هذه الرغبة من داخل السجن لأن مدير السجن لن يسمح بمرورها، لذا سيتوجب عليكِ أن تعاني من أجلي مرة أخرى، هو الأمر الوحيد الذي لن أغضب إذا اضطررتِ أن تتوسلي من أجله.

أمي الطيبة العزيزة الأعز إليّ من روحي، لا أريد أن أتعفن تحت الثرى، لا أريدي لعيني أو لقلبي الشاب أن يتحول إلى تراب، توسلي إليهم ليعطوا قلبي، وكليتيَّ، وعيني، وكبدي، وعظامي، وكل ما يمكن زرعه في جسد آخر هديةً إلى شخص يحتاج إليهم بمجرد إعدامي، لا أريده أن يعرف اسمي، ويشتري لي زهورًا، أقول لك من صميم قلبي إني لا أريد أن أُوضع في قبر تزورينه وتبكين عنده وتعانين، لا أريدك أن ترتدي ثوب الحداد الأسود، أبذلي ما في وسعك لتنسي الأيام الصعبة، واتركيني لتبعثرني الريح، لم يحبني العالم، ولم يتركني لقدري، أنا استسلم الآن وأقابل الموت بصدر رحب، أمام محكمة الله سأوجه الاتهام للمفتشين وقضاة المحكمة العليا الذين ضربوني ولم يتورعوا عن التحرش بي، أمام الخالق سأوجه الاتهام لكل من ظلمني».

وأقول أنا: جهاد الفتاة الأمريكية المسلمة، لقد تعرضتُ لمثل ما تعرضتْ له هذه الوردة الشجاعة، أنا مثلها لا أزيد عنها

شيئًا ولن أنقص، أيها المجتمع المنافق، أنتم مثل باقي الشعوب، لا تدعوا أشياءً لستم أهلٌ لها، كفوا عن ذلك، وقبل أن تبحثوا عن حل مشكلات العالم ابدءوا أولًا بمعالجة أنفسكم من التكبر والتنمر والعنصرية، لقد مات أبي حزنًا ولا أعتقد بأنه كان يستحق ذلك، وبرغم مقتي وغضبي من هذا الوطن إلا أنني لا أستطيع كرهه، لا أستطيع.. ».

لم أكن أعرف وأنا بصدد كتابة هذا المقال أنه سينتشر كل هذا الانتشار، أسبوعٌ واحدٌ تكفل بجعل هذا المقال الحديث الأول في جميع المقالات وجميع وسائل التواصل الاجتماعي، كنتُ أتابع كل ذلك دون أي ردِ فعلٍ مني، حاولتْ قنواتٌ مشهورة أن تحاورني وغيرها من الصحف ولكنني لم أفعل ولم أكن أريد ذلك، حتى هدأ كل شيء، ونسي الناس ماذا كُتب ونسوني، وهذه طبيعة البشر وديناميكية الحياة، لا تقف ولا تنتظر أحدًا، لم أخرج من بيتي طيلة شهور إلا لمراتٍ قليلة، في هذه الفترة كانت تتردد علي بيتي تلك الأسرة المسلمة التي ساعدتني يوم وفاة أبي، وفي هذه الفترة أيضًا زادت مكالمات خالتي لي تُقنعني بالعودة والعيش معها، فبنتها ليلى في مثل عمري واثنتانهما يحباني جدًا، ففي المرات القليلة التي زرتُ فيها مصر مع أبي وأنا صغيرةَ كنت أتعلق بهما كثيرًا وليلى بالتحديد، ولكني لم أكن مستعدة للعودة هناك خاصةً لعلمي باختلاف الحياة تمامًا وأيضًا حتى أستطيع

زيارة أبي وقتما أريد، ولكن القدر لا يسير حسبما نعتقد أو نريد، فالحدث واليوم الثالث كان له رأيٌ آخر..

العاشر من أغسطس، قرار العودة للوطن الحقيقي لم يكن سهلًا ولكنه كان مفاجئًا، في الخمسة أشهر الأخيرة من الوحدة والعزلة عادت لي فكرة لماذا لا أحلم بأمي، ولكن هذه المرة كانت مُلحة جدًا، بدأت في القراءة عن الأحلام وتفاسيرها، لم أجد إجابة على سؤالي ولكن وجدتُ نورًا يضيء من قنديلٍ بعيد، التفكير طيلة اليوم في شيءٍ معين يزيد من نسبة رؤيته في الحلم بفعل قوة العقل الباطن، فبدأت في فعل ذلك أملًا في رؤيتها، ولكن هناك شيئين كانا يترددان على ذاكرتي باستمرارٍ غريب لم أفهمه، كانا هذين الحدثين يعيقان التفكير في أمي لأراها، الأول أتذكرني وأبي يمشط شعري وأنا ذي الخمسة أعوام وأسأله ما هو شكل الملائكة، فيخبرني أنهم مخلوقات من نور فأسأله إذا كانت الملائكة مخلوقات من نور فلمَ تُشبّهني بهم وتقول بأني ملاك؟ فيضحك فأغمض عينيّ وأتمنى رؤيتهم، والحدث الثاني هو الحلم الغريب الذي يراودني منذ طفولتي، طفلٌ باكٍ يجلس بزاوية غرفة وبجانبه طائرةٌ ورقية، وكلما كبرتُ عامًا يكبر هذا الطفل في أحلامي حتى صار الآن رجلًا غير واضح الملامح، لم أخبر أبي عن ذلك الحلم ولا أعرف السبب، حتى ذلك اليوم وهو العاشر

من أغسطس، في تلك الليلة وللمرة الأولى رأيتُ أمي، إنها جميلةٌ حقًا كما كان يُبالغ أبي، ولكنها بدت كأنها تأتي في مهمةٍ رسمية، كانت تصطحب معها صديقةٍ لها سمراء اللون بعض الشيء، نادت عليها باسمها.. اسمها جود، قالت لها بأنني ابنتها الوحيدة جهاد، لم تنطق جود وابتسمت ثم أشارت بيدها إلى هذا الرجل الذي يجلس باكيًا في الزاوية ثم رحلا دون أن أفهم شيئًا، استيقظت مفزوعةً ونظرتُ إلى الساعة فإذا بوقت صلاة الفجر، أنا لا أتذكر آخر مرةٍ صليتُ فيها، ولكن شعرتُ بأنني أريد فعل ذلك، توضأت وهممت بالصلاة، لم أشعر بنفسي إلا ودموعي تنهمر كبراكين مياه انفجرتْ بعد حبس سنوات، أبكي بصوتٍ عالٍ دون أن أقول شيئًا، وبرغم كل شيء كان لدي يقينٌ بأنه يسمع، بأنه يرى، بأنه يعلم ماذا أريد قوله، للمرة الأولى التي أشعر فيها بذلك، أنهيت الصلاة وأمسكت بهاتفي واتصلت بخالتي، فارق التوقيت أعطاني منحةً بأنها وقت النوم عندها لم يحن بعد، ردت بلهفة شديدة واطمئننا على بعضنا ثم سألتها هل تتذكر صديقات والدتي، فقالت نعم، فسألتها هل كان لها صديقةٌ تُدعى جود، فصمتتْ قليلًا وقالت نعم جود كانت أعز صديقات والدتك، تعجبتْ وسألتني لماذا أسأل فلم أرد عليها، يبدو أنني فهمت الآن ما لم أفهمه طيلة هذه السنوات، وبعد ثوانٍ من سكوتي ظنتْ خالتي بأن الاتصال قد قُطع وهمت بالإغلاق ولكن ما قلته حينها جعلها تنادي على ليلى بفرحةٍ **شديدة:**

ـ سأعود إلى مصر يا خالتي، سأعود بعد بضعة أيام.

أغلقتُ المكالمة ولا شيء برأسي سوى جود وولدها، هنالك يكمن جواب كل أسئلتي، هنالك سأعرف في أي الطرق أنا وإلام سأصل، وربما قراري بالعودة ليس محسوبًا ولا مدروسًا كعادتي ولكن قلبي يخبرني بأن هذا هو الحق، هذا الدرب به سراجٌ منير، لا أعرف هل سأعود ثانيةً أم لا ولكني سأفتقد هذا البلد، هذا الوطن، ولكن قد اتضح لي بعد زمنٍ طويل أن الوطن ليس الذي نشأتَ به ولا الذي به حقيبة ذكرياتك، إنما الوطن هو الذي به حقيقتك، لا يشترطُ أن يكون الوطن بلدة بل ربما يكونُ شخصًا، وأعتقد أن السبب في عدم مجيئ أمي إلى هنا كل هذا الوقت أنها تريد إخباري أن هذا ليس بوطنها، وبالتالي فإن وطنها هو وطني أيضًا، هل يكون موطني له علاقةٌ بهذا الطفل الذي تربى معي في ذاكرتي حتى صار رجلًا، ربما..



هاتفي لم يهدأ، كحال عقلي الآن، يبدو أن القلق قد نال منها، ولكن كيف لم أسمع كل هذه المرات التي اتصلتْ فيها، ربما من شدة تركيزي في القراءة، سأتصل بها الآن حتى تطمئن، هي زوجتي وحبيبتي وصديقتي هدى، هي آماني ومأمني وداري ومستقري، تتحملني وأنا أعلم أنه لا طاقة لأحد بتحملي، وبرغم خوفها من الأشياء التي لا تخيف طفل في الثانية من عمره؛ ما رأيتُ أشجع من جيشها حين يعصف الحزن بي وتهزمني نوائب الدهر، لطالما تحملتْ تقلباتي المزاجية وصراعاتي كي أبقى هذا الذي يخطف الأضواء حيث ذهب، هي الغيث المنتظر بعد سنواتٍ عجاف، هي هبة الله وجائزته ومكافئته، هي ..، هي تقف أمامي الآن! غاضبة يبدو أنها ستكسر رأسي، حاولتُ استمالتها بابتسامةٍ ولكن لم تُفلح مُحاولتي، قالت **غاضبة:**

- هو انت كل رواية هتقلقني عليك كده!



كان عليّ العودة لهذه الغرفة مرةً أخرى، أوراق جهاد قد انتهت ولا أعلم ماذا يريدان مني، أعتقد أن إياس يعلم تمامًا ما يريد ولكن جهاد! ماذا فعلتْ بعد أن تركت إياس! ولماذا لم يُمسك بها ولم يدعها ترحل، هل رحل هو من الأصل أم ربما مازالا حتى الآن ينتظرانِي، ينتظرانِي!! أنا لا أعرفهم، ولكن هناك صوتًا يتردد بداخلي، **يقول:** «**أنت تعرفهم.. هؤلاء منك وأنت**

منهم»، لابد أن أفعل شيئًا لهما، لن أتركهما يرحلان وينتحران، في هذه الغرفة طرف الخيط الذي حتمًا سيوصلني لطريقةٍ أنقذهما بها، مهلًا!! مكتبة مصر العامة؟!

إنهما يحبان هذه المكتبة وترددا عليها كثيرًا، ربما أجد هناك شيئًا يوصلني إليهما، استعددتُ للذهاب مسرعًا ولكن هناك شيئًا بالغرفة هنا قد استوقفني.. ماذا تفعل صورتي هنا على هذا الحائط!

أُحب أجواء هذه المكتبة، أُحب القراءة لا بل أتنفسها، أتلذذ باستنشاق رائحة الورق وأتغذى عليها، وأمين المكتبة رجلٌ بشوش صوته رخيم يشبه صوت الرجل الذي كان يروي قصص الأنبياء بالصلصال، هذه القصص كانت تُصيبني بالفضول، فرؤية الأنبياء من نور كانت تضايقني، وددتُ يومًا لو أراهم، تمنيتُ أن أرى الجن والملائكة وأكشف ما خلف هذه العوالم الخفية، لطالما حلمتُ بأن تُسنح لي الفرصة بأن أدق أبواب كل غامض ومثير وأرى ما خلف الستار، ربما هناك سنلقى من فارقونا دون أن تعيقنا الحواجز الفيزيائية المعقدة، لن تمنعنا حينها قوانين الطبيعة، سيصير الزمن عنصرًا ثابتًا لا يُغير ولا يتغير، لكلِ واحدٍ منا بداخله هذه الأحلام تراوده عن الحقيقة، بداخل كلٍ شجاعٍ شيءٌ يخاف منه، وبداخل كل عاقلٍ أمرًا يثير طفولته، وبداخلَ

كل رجلٍ امرأة تعني له الدنيا بما فيها، وبداخل كل امرأة الدنيا ذاتها بذكُورها وإناثها، هن الحياة ونحن ما لنا سوى الحياة للحياة سبيلًا.

فور ما رآني أمين المكتبة ابتسم كعادته، ولكن هذه المرة أشار إليّ أن أذهب إليه، تعجبتُ وذهبت له، سألته مسرعًا عنهما فلم يرد، أعطاني حقيبةً يبدو أنه كان يعرف ما فيها! فنظرته وابتسامته كانتا لهما معنى لم أفقهه حينها، توجهتُ للمكان الذي أجلس فيه دائمًا وأفرغتُ ما في الحقيبة، كان بها ورقتين يبدو أنهما مقطوعتان من ورقٍ آخر، وكتابٌ قديم منقوشٌ على صفحته الأولى كلمة «**المعبد**»، الفضول يقتلني، بدأت في إحدى الورقات وعينايا مفتوحتان عن آخرهما..



الورقة الأولى كانت بخط إياس

«**أنت الآن في المرحلة الأخيرة، آن آوان تبليغ رسالتك التي كُلفت بها وكلفتنا بها، أتمنى أن تكون غرفتي قد أعجبتك، وأتمنى أيضًا أن تصل إلى ما تُريد، نحن على مشارف نهاية مشورانا الصعب، يُعجبني اسمي.. إياس، أخبرتني بأن صاحبه يتسم بالجود وكثرة العطاء ولكني لم أهتم لسماع ذلك، ما يهمني حقًا أن نصل لمبتغانا، ويبدو لي أننا أوشكنا أخيرًا، منذ قليل أتتني أمي بالحلم تُخبرني بأن كل ما نريد موجود بداخل**

هذا الكتاب..المعبد، اسمه غريب، ولكن الأغرب حقًا يا عزيزي أنني اكتشفتُ أني أحد أهم أبطاله، فلتقرأه دون رهبةٍ أو ذرةٍ من تكبر، إنَّ فيه إجابات أسئلتنا كلها..».

الورقة الثانية كانت بخط جهاد

«يُعجبني دفاعك عن المرأة، أحببتُ اسمي لصدق معناه.. جهاد، ويقيني يخبرني بأن صعوبة الطريق هذه تدل على عظمة منتهاه وآخره، لقد عانينا مر المعاناة حتى وصلنا إلى هنا، لم يكن رجوعي لمصر بالأمر السهل أبدًا، بحثتُ عن إياس حتى وجدته، أكملتُ دراستي في كليته نفسها، وتقابلنا للمرة الأولى قبل بداية الامتحانات بفترةٍ وجيزة، كنت أراقبة طوال هذه الفترة دون أن يعلم، كان مثلما كنت أراه، هادئًا كالشجر في منتصف الربيع، كنتُ قادرة على رؤية البكاء الذي يمنعه فلم أره قبل ذلك إلا باكيًا حزينًا، أخبرته عن حقيقة كل شيء حينما طلب مني الرحيل، كان هو على وشك الرحيل من الحياة كلها، في هذا الكتاب الذي بين يديك إجابات الأسئلة التي عجزنا عن إجابة لها، أعطاني إياس إياه لأفاجيء أنني أحد أهم أبطاله، عليك بقرائته بقلبك لا بعقلك، فإنه الرسالة والفكرة وأول الطريق وآخره..».



ورقتين فقط تكفلا بقلب الطاولة على رأسي، هل هذا الكتاب حقًا هو ما فعلتُ كل ذلك لأجله؟ الكتابُ يبدو غريبًا وصفحاته قديمة لدرجة أن اسم مؤلفه غير واضح، سأقرأ ما فيه فأنا أسمع نبضات قلبي كأنها في سباقٍ مع الزمن، أعتقد بأن الفارس التائه قد عاد من جديد، نظرتُ إلى أمين المكتبة فإذا به يقرأ كتابًا أو روايةً ومنهمكًا فيها حتى إنه لا يرد على أحد، فتحت كتاب المعبد لأرى ما يتحدثون عنه، ولكن ما كان مكتوبًا في أول الصفحات جعلني أقف عنده مذهولًا، فلا أعلم كيف ولماذا ومتى أصبحتُ أنا أهم أبطال هذا الكتاب..

المعبد



هذا الكتاب لصاحبه ومؤلفه محمد علي، عُمر هذا الكتاب يتراوح بين بداية الخلق ونهايتهم، هنا حيث لا مجال ولا وجود للخطوط الحمراء، كل شيء مسموحٌ هنا، ولا تتعجب إن اصطدمت بحجارة تُفقدك وعيك، ففقدان الوعي هنا لا يعني بأنك لن تُكمل، فالشرط الأول لهذا الكتاب أن تعي تمامًا أن كل ما ستجده هنا مكتوبٌ لك ولأجلك، هنا إجابات أسئلتك، هنا مأوى الباحثين عن قشةً تنقذهم من ظلمات عقولهم.. هنا المعبد.

إغماض العينين لا يعني توقف الإبصار، إنهما الآن يرون كل شيء، إنهما الآن معًا، المكان مظلمٌ نوعًا ما كما حال قلوبهما الآن، يتلفتان حولهما لا يفهمان شيئًا، ثم ينظران لبعضهما نظرةً طويلة ليقول **إياس:**

ـ انا فين؟ وايه اللي جابنا هنا؟

بفزعٍ ورهبة شديدة تقول **جهاد:**

ـ مش عارفة.. أنا آخر حاجة فكراها الكتاب!

قاطعها **إياس:**

ـ كتاب! اسمه ايه؟

أخذت تتذكر جهاد لثوان ثم **قالت:**

ـ المعبد.. ايوة اسمه المعبد.

ظهرت ملامح الدهشة على وجه إياس **قائلًا:**

ـ وطبعًا حلمتي انك لازم تقرأي الكتاب ده!

ظهرت ملامح الدهشة والتعجب على وجهها هي الأخرى **لتقول:**

ـ بالظبط.. انا مش فاهمة حاجة.

أخذ يدور بعينه في المكان **قائلًا:**

ـ ولا أنا.. بس الظاهر إن احنا مضطرين نفهم.

مشيا سويًا وهما يحدقان بالمكان بشدة، المكان جميل وهادئ، كأنك بصحراء تحدها السماء من جميع الجهات، لا

جدران ولا حوائط، فقط السماء هي بداية الطريق ونهايته، ظلا يمشيان هكذا دون أن ينطقا بشيء حتى وجدا أمامها بابًا كبيرًا عليه نقوشٌ وزخارف لم تصادف عينيهما مثلها قبل ذلك، الباب أزرق والنقوش بيضاء، والزخارف مزجٌ بين اللونين، وفي منتصفه قبضةٌ من الحديد كانوا يستخدمونها قديمًا للنقر على الأبواب يستأذنون بها أصحاب البيوت، ولكن هذه المرة الأمر مختلف، فهما لايعلمان ماوراء ذلك الباب، وإن كان هذا باب بيت فمن صاحبه، ولكن يستحيل أن يكون الأمر كذلك فالمكان كله لايشبه أرضهما وعالمهما، الباب أمامك لا تستطيع أن ترى ما وراءه، فكلما حاولتَ التحرك يمينًا ويسارًا يتحرك الباب معك، فوقفا لا يعلمان ماذا يفعلان سوى أن ينتظرا حدوث شيء ينير عتمة ذلك الفضول الذي استولى عليهما، ومن دون إنذار يسمعان صوتًا رخيمًا **يقول:**

- هذا باب الله.. من أتى ليراه فليغسل قلبه قبل أن يدخل.. المعبد لا مكان فيه لظالمي أنفسهم ومطفئي أنوار قلوبهم.. هذا باب الله.. ادخلوه آمنين.

الدهشةُ تعتلي وجهيهما وفميهما مفتوحان عن آخرهما، الصوت مخيف والكلام كذلك، وماذا يعني باب الله! وما علاقة المعبد بالكتاب الذي كانا يقرئانه، وما علاقتهما بكل ذلك من الأساس، وقبل ان ينطقا بشيء يُفتح الباب على مصرعيه ليأتي النور، لم يكن الباب وحده الذي فُتح على مصرعيه فعينيهما كانتا

كذلك، للحظة الأولى ظنا أنهما في الجنة، المكان رائع حد لا انتهاء له، الألوان تنبعث من الجدران كأن أصول الألوان وُلدت هنا، الزخارف والنقوش أيضًا لاينبغي لها أن يصنعها بنو آدم، هذا المكان كله لاينتمي لشيء مما عرفاه في حياتهما، على يمينهما هناك نافذة كبيرة تتجلى فيها الشمس بنورها الهادئ، تستطيع النظر لها وتبتسم دون أن تداعب عينك بأشعتها فتجعلك تُغلقهما، وعلى يسارهما القمر يطلُ عبر نافذة زجاجية أيضًا، ولأول مرة يريا القمر على حقيقته، معتمًا مظلمًا هرِمًا تستعمره النتوئات والتجاعيد، وكأن النهار على يمينهما والليلَ على يسارهما، ولكن ما كان أمامهما كان الأكثر غرابة وسط كل ذلك، فقد كانت هناك مصابيح كثيرة تضئ بالأزرق، وكأن الأزرق هو المسيطر والمهيمن وسط تلك الألوان، كل المصابيح منيرة عدا مصباح في المنتصف، لفت نظرهما ذلك فمشيا دون إدراك ليريا ما آخر ذلك وسبب كل مايحدث، فطبيعيٌ أن تكون نهاية الطريق أمامك لا خلفك، دَنيا من ذلك المصباح ليجدا شيئًا جعلهما يتقهقرا للوراء من الصدمة، كان رجلًا يرتدي عباءةً سوداء يعلوها وشاحًا يُخفي نصف وجهه أما النصف الآخر فقد تكفل ظلام المصباح بتوريته عن الرؤية وجعله مجهولًا، كان خافضًا رأسه ناظرًا للأسفل، يجلس هادئًا كأن مايحدث حوله طبيعيًا، وإياس وجهاد لايصدقان مايحدث والذهول يملؤهما تمامًا، ينظران لبعضهما بخوف شديد، ولكن إياس فالفضول والإثارة يخففان عليه بعض الشيء، فلا زالت

كلمة «**هذا باب الله**» ترن في أذنيه، مكثًا هكذا حتى صدر ذلك الصوت مرة أخرى، ولكن هذه المرة معلومٌ مصدره وليس مجهولٌ كالمرة الأولى، إنه صوت هذا الرجل، قال وهو يشير إليهما **بالجلوس:**

ـ أهلًا بكما في المعبد.. تفضلا واجلسا فرحلتكم لن تنتهي قريبًا.

استنكر إياس ماقاله ذلك الرجل **قائلًا:**

ـ رحلة ايه! وانت مين أصلا وإحنا هنا ليه!

رفع الرجل رأسه قليلًا تجاه إياس ولكنه لايزال وجهه **مجهولًا:**

ـ تحدث باللغة العربية لأجيب عليك.

تعجب إياس وبدا صوته **غاضبًا:**

ـ مانا بتكلم عربي!

بنفس الهدوء قال **الرجل:**

ـ أنا اتحدث العربية أما أنت تتحدث بلغة عالمك وهذا ممنوع هنا.

هدأ إياس قليلًا ثم قال وهو يبتسم ابتسامة **غيظ:**

ـ حسنًا.. من أنت؟

ـ انا راهب المعبد.

ـ ولماذا نحن هنا؟

ـ انت هنا لتسأل وأنا هنا لأجيب.

قاطعتهما **جهاد:**

ـ طب وأنا؟

نظرا إليها **فأردفت:**

ـ أقصد.. لماذا أنا هنا أيضًا؟

أجابها **الراهب:**

ـ لتجدي إجابة على أسئلتكِ أيضًا.

اندهش إياس **قائلًا:**

ـ حسنًا.. ماهي الأسئلة التي أود معرفة إجاباتها؟

الراهب: كل شيء.. أنت لاتؤمن بشيء يا إياس.

إياس: أجل.. ولكن لدي أسبابًا لذلك.

الراهب: أذن ابدأ بأسئلتك لتزول الأسباب.

بسرعة شديدة باغته **إياس:**

ـ حدثني عن الله؟

الراهب: خالقي وخالقك.

إياس: ومن خلقه؟

الراهب: لا ينبغي له أن يخلقه احد.

إياس: لماذا؟

الراهب: حسنًا.. تخيل معي أنني أريد أن أتحدث مع جهاد وهي بدورها أخبرتني أنني لايمكنني فعل ذلك حتى تُوافق أنت.. وعندما أخبرتك بذلك قلتَ لي لن أوافق حتى تستأذن أحدًا آخر.. والأحد الآخر قال كذلك أيضًا.. ثم الذي بعده والذي بعده إلى مالانهاية.. هل هذا منطقي؟.. إن كان الله مخلوقًا فطبيعي أن يكون هناك خالق لخالقه.. وخالق لخالق خالقه.. وهكذا.. لذا؛ الله بداية كل شيء.. خلقنا ولم يخلقه أحد.

إياس: إذن كيف بدأ الخلق؟

الراهب: هل ستصدقني إن قلت لك إني كنت جالس بمكانٍ ما وفجأة نشأ بجواري حصان؟

إياس: بالطبع لا.. لا ينشأ أي شيء من لاشيء.

الراهب: صحيح.. إذن للكون وللخلق بداية وخالق.

إياس: وكيف بدأ؟

الراهب: ببساطة.. هكذا.

إياس: ماذا تقصد؟

الراهب: انظر فوقك.. المصابيح كلها أُغلقت.

إياس: أجل.. ولكن ماذا يعني هذا؟.

الراهب: أردت إظلامها فأظلمت لأنها ملكي.. فكيف بمن يمتلك البداية؟.. كيف بمن لا قبل قبله؟.. فقط أراد فِعل هذا ففعله.

إياس: أتقصد أن الخلق بدأ فقط لأن الله أراد هذا؟

الراهب: أجل.. هذا ماعنيته.

إياس: إذن كيف يرانا الله دون أن نراه؟

الراهب: كما أخبرك جدك.

إياس: ولكن كيف تعلم ما أخبرني إياه جدي؟

الراهب: إذا كنت أعلم ما لا تعلمه فكيف ما تعلمه؟!

إياس: إذن حدثني عن الدنيا.

الراهب: كوب ماء.

إياس: ماذا تقصد؟

الراهب: اعلم أن بدايتك لم تكن بالدنيا فأنت خُلقت قبل ذلك.. خُلقت مع أبيك آدم.. وحين هبط آدم إلى الدنيا هبطتَ معه.. حقيقتك في النوم لا الاستيقاظ.. فبين النومين تستقيظ فترة نسميها بالعمر.. وقبل أن تستيقظ تأخذ كوبًا من الماء.. فالدنيا ماهي إلا كوب ماء.. تملأه أنت حيث تشاء.. وحين يمتلئ كوبك تعود إلى النوم مرة أخرى.

إياس: أتعني أن الدنيا اختبار؟

الراهب: أجل هذا ما عنيته.

إياس: ولكن لماذا؟

الراهب: ليتحدد مكانك في فترة الاستيقاظ الأبدية.

إياس: ولكنك قلتَ بأننا كنا نيامًا واستيقظنا فترة العمر ثم سننام ثانية.

الراهب: أجل.. ولكن هذا آخر علمي.. فالاسيقاظ الأبدي لا يعلم عنه شيئًا غير الله.

إياس: إذن ماذا تقصد بمكان الاستيقاظ؟

الراهب: الجنة والنار.

إياس: وهل هناك ثالث لهما؟

الراهب: هناك أبيض وأسود.. هناك حلال وحرام.. هناك خير وشر.. هناك جنة ونار.

وإياس: ولكن هناك أيضًا أشياءًا في المنتصف ليس لها مسمى ولكنها موجودة.

الراهب: حالها كحال شخص بغيبوبة.. ستئول نهايته يومًا إلى شيء واحد.. إما أنه سيعيش أو سيموت.. فتأكد أنه ليس هناك وسطٌ دائم.

إياس: أنت تحدثني بالمنطق والعقل وهذا ما أُحب.. ولكن لا أعلم لماذا أخشى الاقتناع؟

الراهب: أقفال قلبك صدئت منذ أعوام.. ستأخذ وقتها وتفتح.

إياس: هل أنت واثق من ذلك؟

الراهب: مثل ثقتك بأن الله كان يسمع كل حديثك.

إياس: ولكني لم أكن واثقًا من ذلك!

الراهب: بلا كنت واثقًا.. وإلا ما كنتَ ترسل له رسالة منذ وقت قريب تخبره بأنك تعلم أنه لا يسمع.. كيف ترسل له رسالة وأنت تعلم ذلك!

إياس: لا أعلم.

الراهب: هل لديكِ أسئلة يا جهاد لم يسألها إياس؟

جهاد: نعم.. لماذا يموت من نحب؟

الراهب: هذا ما يقوله من يحبونك عند موتك.. هل لديك إجابة عليهم؟

جهاد: لا.. ولكني أعلم كيف سيعانون وهم لا يستحقون ذلك.

الراهب: هذا خطأ.. من دون المعاناة لن يتميز أحد.. وإذا تساوى الجميع فلماذا كان الخلق إذن؟

جهاد: هل خُلقنا لنعاني؟

الراهب: ما اجتمع الرضا والمعاناة في قلب أحد أبدًا.

جهاد: الرضا!!.. هل عليّ أن أرضى بكل ما يحدث حتى إن كان لا يعجبني ولا أريده؟

الراهب: وهل عليكِ أن ترضينَ بما يعجبك فقط؟

جهاد: حسنًا.. لماذا نخاف؟

الراهب: ولماذا نحب.. ولماذا نكره.. الشعور هو كلمة السر الحقيقية في كل ما يحدث.. وهي السبب في صناعة القرارات وتغييرها.

قال إياس وبدا عليه **الحزن:**

ـ لماذا لم يستجب الله لدعواتي الكثيرة؟

الراهب: هل بمنطقك من العدل أن تأخذ كل ما تريد؟

إياس: وهل من العدل أيضًا أن يحدث كل ما أكره؟

الراهب: لا.. لم يحدث كل ما تكره.. أنت لا تريد أن تكون أبكم ولا أعمى ولا قعيدًا.. بل تريد أن تسمع وترى وتتكلم وتمشي وتجري وتفعل ما يحلو لك.. أنت تكره ما لا تريده وتحب ما تريده فقط.. ورغم ذلك لم يحدث ما كرهته.

إياس: لم أكن أريد كل هذه الأشياء.. أردت فقط ألا يتركني من أحبهم.

الراهب: ليس صحيحًا.. لن تدرك قيمة عينيك إلا قبل اقتلاعهما بثوانٍ.. لن تدرك قيمة قدميك إلا قبل بترهما بثوانٍ.. لن تدرك قيمة شيء إلا عندما تفقده أو قبلها بوقتٍ قصير لا يكفي لتغيير المسار.

إياس: هل يفرح الله حينما نحزن؟

الراهب: لا بل يحزن لحزنك.. يفرح فقط حين ترضى بقضائه.. يفرح لك.. لا يفرح عليك.

إياس: هل يحبنا لهذه الدرجة؟

الراهب: إذا كان حب أمك لك كبيرًا وقويًا لأنها انجبتك وولدتك فما بالك بخالقك؟

إياس: هل سنراه هنا؟

الراهب: لا.. لن تراه حتى تؤمن.

إياس: وماذا احتاج لأؤمن؟

الراهب: الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

همَّ إياس أن يكمل حديثه ولكن قاطعته **جهاد:**

- هل لي أن أطلب شيئًا؟

الراهب: اطلبي ما شئتِ.

جهاد: أريد أن أرى الملائكة.

تعجب إياس مِن قولها ولكن الراهب صمت قليلًا ثم أشار بيده إلى بابٍ بالمعبد **قائلًا:**

- اذهبا هناك ستراانِ الملائكة.. ولكن صدقا ذلك أولًا.

لم ينتبها جيدًا لما قاله الراهب وقامت جهاد متلهفةً ببراءة طفلةٍ لترى حلمها المستحيل يتحقق بمجرد طلبها، أما إياس فقد ظل في مكانه يُخفي بعضًا من فضوله الذي نال منه، وربما لم يطلب ذلك ولكنه حتمًا يريده، فالجميع يريد أن يرى الملائكة، الجميع يريد رؤية ما وراء الستار، فكشف الغموض مثيرٌ ومحبب

للنفوس، قام خلفها ولحقها عند الباب وقال محذرًا إياها عندما رآها تمد يدها لتفتح الباب الذي لم يستجب **لها:**

ـ ماذا تفعلي؟! .. هذا الرجل مجنون .. الملائكة لا تُرى.

نظرت له جهاد **ساخرةً:**

ـ من يسمعك الآن لن يتخيل أبدًا أنك كنت منذ قليل تنصاع لما يقوله هذا الرجل الذي تتحدث عنه.

أجابها إياس **بحدة:**

ـ يحادثني بالمنطق والعقل وهذا أحبه.. أتظنيني سأعارضه لمجرد التعصب لوجهة نظري أو تفكيري!.. هذا خطأ.. ولكن هذا أيضًا لا يعني أن كل ما يقوله أو يفعله صوابًا!.

ابتسمت جهاد **قائلةً:**

ـ لن نخسر شيئًا من التجربة.. كل شيء يكمن في التجربة.

تعجب من قولها فهو دائمًا مايقول ذلك، وحينما تسلل الإيمان بوجهة نظرها إلى قلبه فُتح الباب وحده، أتى النور مداعبًا عينيهما بقوة فوضعا يدايهما ليحجباه قليلًا، وحينما هدأ النور نزعا يديهما ليرا أسرابًا من الطيور تمشي على الأرض بحركةٍ منتظمة، والأشجار تنحني لتشرب من أنهار العنب والليمون، السُّحب تجلس بصحبة العُشب ويتحدثون عن أشياءٍ تبدو مهمة، مايحدث أمامها كان صدمةً يصعب استيعابها، ولكن نصف الصدمة أحيانًا مايكون رائعًا وملهمًا، ظلا يمشيان وهما ينظران

حولهما بذهولٍ تام، وكان ماقاله الراهب صادقًا، لم يراهما أحد، فلو عَلمَ ساكنو هذا المكان بوجود أغرابٍ فحتمًا سيعودون إلى هيئاتهم التي اعتادوا على رؤيتها، ولكنهما وقفا فجأة ليشاهدا شيئًا غريبًا لم يعتقدا أبدًا أنهما يومًا سيشاهدانه، فلقد توقف الجميع عما يفعلون وأخذوا يستمعوا لشيء ما، هذا الشيء لم يكن ظاهرًا لإياس وجهاد، وبعدها بثوان عاد الجميع لطبيعتهم، الشجر شامخٌ لا يتحرك، والسحب تستعد لإطلاق ثورتها الحانية، والعُشب يبتسم لمداعبة الرياح له، ماذا حدث! ما الذي لم يروه؟ ظلا ينظران لبعضهما أملًا في إجابة عن أسئلتهما ولكن لا فائدة، فوقعا بين اختيارين لا ثالث لهما، إما العودة إلى الراهب وفهم ماحدث، وإما الاستمرار في ذلك المكان ربما تأتي الإجابة وحدها، وبينما يفكرانِ فوجئا بعودتهما ثانية إلى المعبد، ربما تسلل الشك إلى قلبيهما مرة أخرى فطُردا، كان الراهب لايزال في مكانه كأنهما لم يتركانه، هرول لإليه إياس **غاضبًا:**

ـ لماذا لم نرَ الملائكة!.. لقد خدعتنا.

ثم أكمل وهو ينظر إلى **جهاد:**

ـ أخبرتُكِ أننا لن نراهم ولكنك صممتي على التجربة.

ردت جهاد **بهدوء:**

ـ ولكننا لم نخسر شيئًا.. بل على العكس فلقد رأينا أشياءً لم نتوقع أبدًا أن نراها.

هدأ إياس وتنهد قليلًا ثم **قال:**

ـ بلا.. خسرنا شيئًا كبيرًا يا جهاد.. لقد كنت على وشك الإيمان بشيء.. ولكن يبدو أنني سأظل هكذا إلى الأبد.

أتى صوت الراهب رخيمًا **كعادته:**

ـ اعلما أنكما هنا لتريان ما تريدان رؤيته.. وإذ لم تريَا الملائكة فحتمًا أنتما لا تريدا ذلك.

ردت جهاد **بحدة:**

ـ ليس صحيحًا.. فأنا أريد رؤيتهم.. هذا حلمي منذ الطفولة.

قال **الراهب:**

ـ أنتما هنا لتتأكدا من عدم وجود الأشياء وليس التأكد من وجودها.. أنتما هنا لمحاربة أنفسكما لا مساعدتها.. فاعلما جيدًا أنكما ما كنتما تريدا رؤية الملائكة للتصديق بوجودها.. بل كنتما تريدا تأكيد عدم وجودها وتأكيد أنني أكذب عليكم.

همّا ليقولا شيئًا بصوت واحد ولكن الراهب **أردف:**

ـ أنت يا إياس لا تريد الإمان بشيء؛ لأنك بذلك لن تجد ملجأً وملاذًا عندما لا يُستجاب لدعائك، وأنتِ ياجهاد لا تريدين الإيمان بشيء حتى تفعلين ماتريدين دون عواقب وحواجر، لماذا دخلتما هنا وتركتما قلبكما عند الباب؟ ما قولته لكما قبل دخولكما هنا لايعني أن تتركا قلوبكم بالخارج لمجرد أنها مُطفأة، لماذا لم تفكرا حتى

في إنارتها بعود ثقاب صغير؟ لماذا الظلام دائمًا هو طريقكم السهل والمستقيم، هذا خطأ، إن أردتما الإجابة على أسئلتكما لابد أولًا أن تعلموا ماذا تريدان، فإن أردتما الظلام فاستمرا في العند والمكابرة، وإن أردتما الحقيقة فادفعا المقابل، فلكل شيء مقابل، ومقابل الحقيقة انتظارها والبحث عنها لا الهروب منها.

لم يردّا عليه، ربما كان صمتهما دلالة واضحة على صحة كلامه، ثم نظرا لبعضهما نظرة طويلة وتحركا سويًا تجاه الراهب، جلسا بمكانهما دون أن يتفوها بكلمة، أنظار إياس تعبث بتفاصيل جدران المعبد أما جهاد فالألوان تخطف نظرها واهتمامها، الراهب هادئ كماءٍ راكد منذ أعوام، حدق إياس في وجه الراهب فإذ بأسفل ذقنه قد أفلت من ذلك الوشاح فصار واضحًا يُمكن رؤيته بوضوح، لحيته الخفيفة السوداء لا تنم على كِبر سنه، يبدو شابًا ولكن صوته ينافي ذلك، بشرته تميل للبياض ولكن الإضاءة تمنع التيقن من ذلك أيضًا، قطع ذلك الصمت صوت إياس **قائلًا:**

- وماذا بعد؟

أجابه **الراهب:** أنتظرُ أسئلتك.

إياس: ولكني مشتت.. لا أعلم ما أريد معرفته.. لا أعلم ما أريد من الأصل..

الراهب: خُذ وقتك.. فلا أهمية لشيء قبل أن تعلم أولًا ماذا تريد.

جهاد: إذن سأسأل أنا حتى يتسنى لإياس التفكير بهدوء.

الراهب: سلي ماشئتِ.. فهو يريد أيضًا أن يعلم الإجابة على أسئلتك.

جهاد: حسنًا.. لماذا يعاقبنا الله بالحرمان؟

الراهب: ومن أخبركِ بأنه عقاب؟

جهاد: هذا بديهي.. إذا أردتُ شيئًا ولم يعطيني إياه فهو يحرمني منه.. وهذا عقاب.

الراهب: لا ليس عقابًا.. فأنتى تطلبين شيئًا وتريدين تحقيقه.. هل إذا تحقق ستكون مكافأة أو جائزة؟

جهاد: نعم.

الراهب: إذن ما الذي فعلتيه لتكافئي عليه؟

جهاد: أعبده وأصلي له.

الراهب: دعينا نعود لما أثبتناه منذ قليل أن هناك خالق واحد لا قبل قبله.. وأن لكل شيء مقابل.. إذن فالله خلقك هذا صحيح؟

جهاد: نعم.

الراهب: إذن ما مقابل كونه خلقك؟

جهاد: أن أعبده.

الراهب: إذن لماذا يُكافئك؟

جهاد: أتقصد أني أعبده شكرًا لخلقه إياي.. إذن لم أفعل شيئًا يكافئني عليه؟

الراهب: أجل.. هذا ما أقصده.

جهاد: ولكن هذا يعني أنه يعاقبني بالحرمان إذ لم أعبده؟

الراهب: لا.. ليس هناك عقاب بحرمان أو مكافئة لعبادته سوى بعد الاستيقاظ الأبدي.. المكافئة ستكون الجنة والعقاب سيكون النار.. هذا بسيط.. أما طلب الشيء لا يتعلق بشيء غير الطلب.. فهناك الكثير ممن لايعبدونه ويُعطوْن مايَطلبون وهناك الكثير ممن يعيشون حياةً لا مثيل لها وبرغم ذلك لا يعترفون بوجود خالق.. فطلب الشيء يعود لصاحب الشيء.. إن شاء قبِل وإن شاء رفض.. هذا له وحده.

جهاد: إذن ماذا أفعل حتى يُستجاب لي.

الراهب: ادعِي أولًا.. ثم انتظرِي.

جهاد: وإذ لم يتحقق ما دعوته.

الراهب: لابأس..حاولي ثانيةً.

صمتت جهاد فقال الراهب موجهًا كلامه **لإياس:**

- هل وجدت ضالتك؟

بشرود ملحوظ أجاب **إياس:**

- نعم.. نعم هذا ما كنت أريد معرفته!

الراهب: إذن ماذا تود أن تعرف الآن؟

إياس: هل الجن موجود؟

الراهب: نعم.. هو مخلوق مثلك.

إياس: إذن لماذا يراني ولا أراه؟

الراهب: عندما خلق الله أباك آدم وفضله على المخلوقات جميعهم ثار إبليس وقال لماذا؟

إياس: ماذا تقصد؟

الراهب: إن كان لأبٍ ثلاثةُ أبناء ولكنه يفضل أحدهم ويحبه أكثر منهم.. وبرغم ذلك فقد أعطاهم مالًا أكثر منه.. هل يلتفت المحبوب هذا للمال فضلًا عن الحب والتفضيل؟

إياس: أتعني أن المال زائل ولكن القيمة لا تزول؟

الراهب: أجل.. هذا ما عنيته.

إياس: هل كلهم كافرون؟

الراهب: هم مخلوقات مثلك.. يؤمنون ويكفرون.. يدخلون الجنة ويدخلون النار.. لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

إياس: كيف يدخلون النار وهم مخلوقات من نار؟

الراهب: كما يموت ملَك الموت.

إياس: من هو ملَك الموت؟

الراهب: عزرائيل.

إياس: ومتى سيموت؟

الراهب: حين يصبح الموت السبيل الوحيد للاستيقاظ الأبدي.

إياس: ومتى سيحين وقت الاستيقاظ الأبدي؟

الراهب: أخبرتك أني **لا** أملك مفاتح الغيب.

إياس: وكيف تجيب على أسئلتي إذ **لا** تعلم؟

الراهب: ما تسأله ليس بغيب.. الغيب بيت من بيوت الله الذي لن يدخله غيره.

إياس: هل الجن موجودون حولنا الآن؟

الراهب: نعم.

نظر إياس إلى جهاد وأومأ برأسه فأومأت هي الأخرى أنها موافقة، عاد بنظره إلى الراهب **قائلًا:**

ـ إذن نريد رؤيتهم.

صمت الراهب قليلًا وهما ينتظران في شغفٍ وفضول، أشار الراهب إلى بابٍ بجانب باب الملائكة الذي دخلاه منذ قليل **وقال:**

ـ هذا بابكما الثاني.. **لا** تنسيا ما أخبرتكما به.. إن أردتما رؤيتهم فعليكما أن تُصدقا ذلك.

مشيا قليلًا حتى ساوا بين البابين، وقف إياس بغتةً **قائلًا:**

ـ جهاد.. نريد رؤيتهم.. نريد التصديق.. رددي ذلك.

وبعكس شخصيتها العنيدة رددت بطواعية **متناهية:**

- نريد رؤيتهم.. نريد التصديق.. نريد رؤيتهم.. نريد التصديق.

ظلا يرددان هذا مع بعضهما حتى فوجئا بباب الجن يُفتح وحده، دَنَيا منه وفي لحظةٍ مباغتة وجدا أنفسهما بالداخل، وحدث مالم يتوقعاه أبدًا، فلقد كان ظنهما أنهما سيجدان النيران حولهما في كل مكان والمكان مخيف كما يظن الجميع، ولكن ما رأوه كان مختلفًا تمامًا، المكان هادئ كأنك تمر بشوارع الأرض في الخامسة صباحًا، المارة قليلون ويشبهون البشر إلى حد كبير ولكن ليس بصورة مخيفة، يبقى الاختلاف اختلاف مهما كان، المارة يبتسمون لهما! هذا يعني أنهم يعلمون أن هناك غريبان في عالمهم، ولكن كيف للشر أن يبتسم كذلك؟ هذا السؤال كان يدور برأسهما ولكن سرعان ما أتت الإجابة برأسهما أيضًا.. وماذا إذ لم يكونوا شرًا؟! ماذا إذا كانوا طيبين؟ فابتسامهم لغريبين تدل على ذلك! ظلا يمشيان بهدوء وهما يدققان النظر في وجوه المارة ولا شيء يتغير، الابتسامة فقط، فبتلقائية شديدة وجدا نفسيهما يبتسمان أيضًا، حتى استوقفهما منظر أعجب من كل ذلك، لقد رأيا شابًا يجلس بجوار شجرةًساندًا رأسه عليها وينظر إلى بحر أمامه، البحر ماؤه أحمر، والشاب لونه يميل إلى الاحمرار قليلًا أيضًا، ثيابه تشبه إياس نوعًا ما وشعره يشبه شعر جهاد المختبئ

وراء حجابها، عينيه مستطيله لكن لونها جميل! اقتربا منه فنظر لهما ثم ابتسم **قائلًا:**

ـ أهلًا بكما.

ابتسما له أيضًا وقال **إياس:**

ـ أهلًا بك.. نعتذر على مضايقتك ولكن نريد أن نسألك عن أشياءٍ نريد معرفتها.

قال الشاب **مُرحبًا:**

ـ اسألا ما تريدانه.. فلستما أول من يأتي ولن تكونا آخرهم.

تعجبا من قوله فقالت **جهاد:**

ـ أهناك من أتى قبلنا؟

قال **الشاب:**

ـ نعم.. الأسئلة التي تدور بداخل البشر عنا كثيرة والفضول قائد مُحنك.

إياس: إذن.. ما اسمك أولًا؟

قال **الشاب:**

ـ انا برقان.

قال **إياس:** هل أنت من الجن؟

برقان: نعم.

إياس: هل لكم أنواع؟

برقان: نعم.. مثلكم أيضًا.

إياس: من أي الأنواع أنت؟

برقان: أنا من الجن المسلم.

إياس: أتعني أن هناك جنًا كافرٌ!

برقان: نعم.. هناك جن مسلم وجن كافر.. جن تائبٌ وجن عاصٍ.. نحن مثلكم يا إياس.

إياس: إذن لماذا يخاف البشر منكم إن كان البعض يدين بمثل الديانة؟

برقان: وهل أهل الديانة الواحدة لا يؤذون بعضهم؟

إياس: بالطبع لا.. ولكنى أقصد أنكم مثلنا إلى حد كبير فلماذا نخاف منكم؟

برقان: هذا السؤال تجيبون عليه أنتم.. ليس أنا.

إياس: هل تكرهوننا لأننا نكرهكم ونخاف منكم؟

برقان: لا.. نحن ندرك أن عدم رؤيتكم لنا وعدم علمكم بعالمنا يثير الفضول والرعب أحيانًا.

إياس: هل تؤذوننا؟

برقان: إن آذيتمونا.

إياس: ولكن هناك منكم من يفعل ذلك دون أن نفعل لهم شيئًا.

برقان: تستخدمونا لأذيتكم.. لا تلومونا.

إياس: ماذا تعني؟

برقان: الكافر منكم يستخدم الكافر منا لأذية المسلم منكم.. هذا بسيط.

إياس: وماذا نفعل لكي لا نؤذى.

برقان: لا تخف.

إياس: ماذا تعني؟

برقان: ثق أنه لن يضرك شيء ما إن قتلت الخوف بداخلك.

إياس: وكيف أقتله؟

برقان: لن يضر مخلوق مخلوقًا مثله.

إياس: هذا غير صحيح.. فالبشر يقتلون بعضهم والجن يؤذون البشر أيضًا والجميع مخلوقات.

برقان: ثق أولًا وصدِق ثم انظر ماذا سيحدث.. ألم يخبركما الراهب بذلك؟

نظر إياس لجهاد بتعجب لتنظر له هي الأخرى بمثل التعجب، قالت **جهاد:**

- أتعرف الراهب؟

ابتسم برقان بلطف **وقال:**

- نعم أعرفه.. نحن هنا بسببه.

زادت نظرات التعجب عليهما ليردف **برقان:**

- ستعلمان حين يحين الوقت.. لا تستعجلا شيئًا قبل أوانه.

أومأ إياس رأسه موافقًا **وقال:**

ـ حسنًا يا برقان.. أتؤمن بالله؟

برقان: ألم اخبرك بأنني مسلم؟

إياس: إذن حدثني عنه.

برقان: هو الأول قبل البداية.. والآخر بعد النهاية.. هو عقل الكون وقلبه.

إياس: أتحبه؟

برقان: وكيف لا أحب من جعلني أحب؟

إياس: هل تحبه لهذا السبب فقط؟

برقان: أعمق أنواع الحب ما ليس له سبب.

قالت **جهاد:** وهل للحب أنواع؟

برقان: نعم.

جهاد: ما هي؟

برقان: المودة والعشق.

جهاد: وما الفرق بينهم؟

برقان: المودة هي أن تحب من دون مقابل.

جهاد: وما هو العشق؟

برقان: أن يكون المقابل سببًا للحب.

قال **إياس:** وهل للكره أنواع ايضًا؟

برقان: لا ليس للكره أنواع.

إياس: لماذا؟

برقان: الكره عمى القلب.. وحين يعمى القلب فالكل سواء.

إياس: إجاباتك فلسفية كالراهب.

ابتسم برقان قليلًا **وقال:**

- الآن حان وقت عودتكما له.

همّا بأن يقولا شيئًا ولكن سُرعان ما وجدا نفسيهما بداخل المعبد ثانيًا، الأنوار ازدادت قليلًا عمّا تركوه منذ قليل، وأنوار قلوبهما أيضًا، كذلك نصف وجه الراهب تكفلت بإظهاره المصابيح! إنه شاب أبيضُ ذو لحية شديدة السمار، الآن تبدو ابتسامته واضحة..



المعبد يزداد جمالًا، الألوان تخرج من الجدران لتعانق الهواء، بصيص النور الذي تسلل لقلبيهما الآن يجعلهما ينظران لكل شيء مبتسمين، والراهب لايزال هادئًا صامتًا، قال إياس بحماس **شديد:**

- ماذا سيحدث الآن؟

ولأول مرة يحرك الراهب رأسه تجاه إياس **قائلًا:**

- بماذا تشعر؟

صمت إياس قليلًا ثم تنهد **قائلًا:**

ـ أشعر بالراحة نوعًا ما.. وهذا جيد.

حرك الراهب رأسه تجاه جهاد **قائلًا:**

ـ وأنتِ يا جهاد؟

تنهدت هي الأخرى **وقالت:**

ـ أشعر بسلامٍ نفسي كبير.. وهذا لم يحدث منذ زمن.

نظر الراهب إلىً المصابيح التي أنارت جميعها في آن واحد ثم قال **لهما:**

ـ لم يتبق لكما هنا سوى القليل.. اطلبا طلبكما الأخير.

ابتسم إياس ونظر لجهاد التي كانت تبتسم هي الأخرى مثله، وبنظرتهما لبعضهما المعتادة أومأ كل من هما برأسيهما ليقول إياس في **هدوء:**

ـ نريد أن نرى الأموات.

بدت ابتسامة الراهب واضحة تحت هذا الوشاح الذي يرتفع بين حين وآخر، أشار لبابٍ ثالث بجوار البابين اللذين دخلاهما، قال وبدا صوته **محذرًا:**

ـ اربطا على قلوبكما.. لم يتبقَ لكما إلا القليل.

قاما وتوجها للباب وبعينيهما حماسٌ غير الذي كانا بهما عند دخول البابين الماضيين، قال **إياس:**

ـ من تريدين أن تري؟

جهاد: أريد أن أرى أمي.

ضحك إياس لأول مرة **وقال:**

ـ وأنا أيضًا.

وقفا أمام الباب وهمّا بالدخول ولكنهما رأيا شيئًا استوقفهما، إنها الجنة! جمال المكان يجعلك تقف في مكانك لا تعرف ماذا تفعل، أأمهاتهما دخلتا الجنة أم أن هذا مكانهما المؤقت حتى يحين وقت الاستيقاظ الأبدي، دخلا وهما يمشيان بحرص كأنهما يخافان أن يؤذيان العشب الذي لا يشبه العشب بأرضهما، الهواء نقي وبارد فور ما يرتطم بجسدك يجعلك تنتشي كأنك تطير، الرائحة تشبه رائحة الليمون، الشمس تُنير المكان بضوء أبيض وليس أصفر كما اعتادا عليه من قبل، تدور عينيهما الاثنان بحثًا عما يريدان، حتى رأى إياس امرأةً تمسك بطائرة ورقية، شعرها يتطاير ويجعلها كما صورتها الذي لم تذهب أبدًا من عقله، إنها أمه، ذهب إليها وترك جهاد تبحث عن أمها هي الأخرى، وكانت هي المرة الأولى التي يفترقا فيها، ولكن هذا طبيعي، فمن تحبه أكثر ستذهب إليه أسرع، دنى إياس من أمه ووقف أمامها دون أن يقول شيئًا، ولكنها لم تصمت مثله، فقد احتضنته باكيةً، ثم ابتسمت وأعطته الطائرة **قائلةً:**

ـ أنتظرك كل يوم لأعطها لك.

تعجب إياس **قائلًا:**

ـ وكيف تعلمين أني سآتي؟

ربتت على كتفه وهي **تقول:**

ـ لقد طلبت من الله أن يأتي بك إليّ.

إياس: ولكنه أخذك مني!

الأم: هذا قدر يابني.

إياس: ولماذا يكون قدري أن يتركني من أحب؟

الأم: وكيف يرى حبك له إن لم يختبرك؟

إياس: ولماذا الاختبار قاسٍ لهذه الدرجة!

الأم: على قدر المحبة يأتي الشقاء.

إياس: فهمت..

الأم: عليك يابني أن تحب الله.. هذا سيغنيك عن حب من دونه.

إياس: هل هذا معناه ألا أحب أحدًا حتى أنتِ!

الأم: لا يا بني.. أحب من تحب.. ولكن لا تحب المخلوق أكثر من الخالق.

إياس: أنتِ أيضًا تتحدثين مثل الراهب.

ابتسمت أمه **قائلةً:**

ـ الآن حان وقت عودتك له.

همّ أن يقول شيئًا ولكن سرعان ما وجد نفسه يقف أمام الراهب الذي نزع الوشاح من على وجهه ويقف هو أيضًا ينظر لإياس الذي يفتح فمه على آخره من الصدمة، إنه يعرف الراهب.

لاتزال جهاد تبحث عن ضالتها، والدتها التي لم يتسنَ لها رؤيتها من قبل في الحقيقة، ففي المرة التي رأتها في الحلم كانت تشبه آخر صورة لها، كانت جهاد قلقة ومتوترة كطفلةٍ لم تتجاوز السادسة بعد، فرحةٌ أنها أخيرًا سترى من أعطتها إشارة دخول الحياة وخرجت هي منها، وكأن الحياة أعطتهما نصيبًا واحدًا لايجوز لاثنتيهما مشاركته، كانت جهاد تنظر في وجوه الجالسات بجوار إحدى الأشجار يلتففن حول امرأة جمالها لم يخطر ببال أعظم المنجمين ولا راود خيال الهائمين، ترتدي وشاحًا أزرق وكأنها قد وُلدت بجوار جدران المعبد، إنها تشبه جهاد كثيرًا، إنها أمها، كان النساء يجلسن حولها كأنها تُعلمهن شيئًا، ولكنها فور ما وقفت أمامها جهاد حتى قامت تنظر لجهاد بحنان شديد، دموعهما تكفي لجعل العشب لا يطلب ماءً لسنوات طويلة، فالأم هي الصديقة الأولى لإبنتها وناصحتها الأمينة، ارتمت جهاد بين ذراعي والدتها وعلا صوت بكائها، أخذت والدتها تمسح على رأسها لتهدأ، وهدأت فعلًا، قالت جهاد بصوتها **الباكي:**

ـ كيف تفعلين ذلك.. كيف تتركيني وتترحلي هكذا؟

قالت الأم ولاتزال تمسح على **رأسها:**

ـ هذا قدر الله يابنيتي.

جهاد: ولكن القدر قاسٍ جدًا يا أمي، أنتِ **لا** تعلمين كم عانيت في فراقك.

الأم: أعلم.. ولكن الشقاء يأتي على قدر المحبة ياعزيزتي.. فالله يُحبك.

تعجبت جهاد **قائلةً:**

ـ أنتِ تتحدثين مثل الراهب!.. أتعرفينه؟

ابتسمت الأم **وقالت:**

ـ نعم.. نحن هنا جميعًا بسببه.

زاد التعجب على وجه **جهاد:**

ـ جميعًا.. ماذا تقصدين؟

الأم: أعني أنا وأنتِ وإياس ووالدته.

جهاد: ومن أتى بالراهب إلى المعبد.

الأم: البطل الحقيقي.

جهاد: عن من تتحدثين؟

الأم: ستعلمين قريبًا.

كانت لتقول جهاد شيئًا حتى فوجئت بأنها عادت إلى المعبد ثانيةً، كان إياس ينظر للراهب في ذهول شديد، وما إن نظرت

جهاد إلى وجه الراهب حتى ذهلت هي الأخرى، إنهما يعرفانه جيدًا.. إنه أنا.

أغلقتُ الكتاب وأنا مبتسم، إنها النهاية، وكعادة نهاية كل رواية أحزن لفراق أبطالها ولكن هذه الرواية تختلف عن كل ما كتبته في حياتي، إنها روايتي أنا، أنا كاتبها وبطلها، لا لستُ وحدي، لم يكن أن تكتمل أبدًا من دونها، وها هي قد **أتت:**

- كنت عارفة إني هلاقيك هنا.. زي كل مرة بتكتب فيها رواية وتعيش فيها وتنسى نفسك.

ابتسمتُ لها **قائلًا:**

- بس الرواية دي مختلفة يا هدى.. محدش كان هيجاوب على أسئلتنا غيرنا.. كان لازم أدور لحد ما ألاقي الإجابات.
- ولقيتها؟

صمتُ قليلًا، ثم **قلتُ:**

- مش كلها.. بس جاوبت على كتير.. وأكيد هلاقي الباقي بعدين.. المهم إن أفضل أدور.. واللي هيقرأ كمان يدور ويشوف ويعرف.. أنا حبيت أفتحلهم باب يساعدهم.

ربتت على يدي **وقالت:**

- متقلقش.. الرواية هتعجب الناس.. أنا واثقة من ده.

أجبتها **متفائلًا:**

ـ الإعجاب ده شيء نسبي.. أنا كل اللي يهمني إن الفكرة والرسالة توصل.. إحنا بنكتب عشان كده.. كل واحد فينا اتخلق عشان يكون مؤثر وله بصمة جوه الناس أو على الأقل وسط اللي يعرفهم.. محدش اتخلق كده بدون سبب أو هدف.

ابتسمتْ ورأيت حبًا بعينيها أضفى على المكان ألوانًا إضافية، حتى جاء ذلك الرجل ممسكًا بالكتاب الذي كان يقرأه منذ قليل وقال بصوته **الرخيم:**

ـ أعجبتني جدًا هذه الرواية.. أحببتُ أبطالها وتعلقت بهم.. وأعتقد أن البطل الحقيقي الذي كنت تقصده.. هو أنت.

هذا الرجل هو أمين المكتبة، أحب طريقة حديثه واعتزازه باللغة العربية، رددتُ عليا مُؤمنًا على **كلامه:**

ـ نعم.. أنا من كتبتُ كل ذلك.

فتح عينيه في دهشة **قائلًا:**

ـ أتقصد..!!

أومأتُ برأسي **إيجابًا:**

ـ نعم.. كل ما حدث في الرواية قد حدث بالفعل.. ولكن بطريقة غير مباشرة.

ابتسم بعينيه ومد يده **مصافحًا:**

ـ موفق.. أنتظر رحلتك الثانية بفارغ الصبر.

قالها ورحل، أخرجت من جيبي ورقةً مطوية لا تُفارقني، مكتوبةٌ بخط طفل أعرفه جيدًا، إنه أنا، أو إياس، ليس هناك فارق، مكتوبٌ بها «**عزيزي ربنا.. أنا بحبك أوي**».

بينما هدى ظلت تنظر لي بحبٍ بالغ، ثم أمسكت بالرواية **قائلة:**

ـ لم يحبنا العالم..

سكتت قليلًا ثم فاجئتني بأجمل ما سمعتُ في **حياتي:**

ـ لا يهمك يا صغيري إن أحبك العالم أو لم يفعل.. سأحبك أنا بدلًا عنه.

تمت

لإبداء الآراء حول الرواية
والتواصل مع الكاتب:



https://www.facebook.com/aboali100



aboali1081994@gmail.com


تَشكِيل للنَشر والتَوزِيع